مبادرة

القراءة بالمجان

الكتاب: صرخات الوهم
الكاتب: رحاب محسن
رقم الإيداع: 23885/ 2019
ISBN:978-977-800-105-1
تصميم الغلاف: محمد عبد القوي مصيلحي

دار ليان للنشر والتوزيع
مدير النشر: فتحي المزين: 01282288056
Email: layanpub@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، وأي محاولة للطبع أو النشر بأي طريقة دون
موافقة كتابية يعرَّض صاحبها للمساءلة القانونية

رحاب محسن

مممممم مممممم

رواية

ليان
للنشر والتوزيع

استيقظت وكأنما أفقت من سبات عميق دام طويلاً. فتحت عيني بصعوبة بالغة وتطلعت إلى ما حولي. كانت عيناي غائمتين. الأوغاد! لا بُدَّ أنهم أعطوني جرعة أخرى من ذاك المخدر اللعين. شعرت بثقل جفوني وحاولت فرك عيني علِّي بذلك أبصر شيئًا ما. كانت الجدران ناصعة البياض وكذلك كان كل ما حولي. طغى اللون الأبيض على كل شيء. لم أدرِ أين أكون ولا ما جاء بي إلى هذا المكان.

"هل استيقظتَ أخيرًا؟"

بداية لم أستطع تحديد مصدر الصوت. نظرت حولي لأجد شخصًا يرتدي معطفًا أبيض. تبين لي فيما بعد أنه طبيب.

"أين أنا؟"

"ألا يبدو لك هذا جليًّا؟ أنتَ في المشفى."

عصفت بذهني مئات الأسئلة وكان أوّلها: ما الذي أتى بي إلى هنا؟ تبًّا لهم! إنهم يعتقدون أني مريضٌ حقًّا. لا، ليس الأمر كذلك. إنهم المرضى الحقيقيون، أما أنا فلست مريضًا! أنا معافى تمامًا. كل ما في الأمر هو أني أبصر ما لا يبصرون. لا أجد شيئًا يدعو للاستغراب في ذلك. إنهم ينسجون المؤامرات ضدي، لقد احتجزوني رغمًا عني في تلك المنظمة السرية. سأقاضيهم جميعًا!

صرخت:

"سأقاضيكم جميعًا! دعوني أخرج من هنا!"

فقال الطبيب:

"اهدأ أرجوك"

حاولت تحريك يدي فلم أستطع. إنهما مقيدتان إلى السرير الذي أنام عليه. ازداد اضطرابي وهلعي وبدأ جسدي يرتجف بقوة. ثم سمعت ذلك الوغد يقول:

"لا تقلق، أنت بخير"

فصرخت:

"كاذب! كلكم كاذبون! أنا لست بخير. إنكم تزعمون أنكم تعرفون كل شيء وأن ما لا ترونه بأعينكم فهو غير موجود بالطبع. أنتم لا تبصرون معاناتي. ما أدراكم بلواعج قلبي؟ ما أدراكم بما يدور داخل دماغي؟"

ازدادت رجفتي بشكل ملحوظ إلا أني تابعت:

"أتعتقدون أني أحمق؟! مَن تظنون أنفسكم؟ أنا أحق منكم بتلك الحياة التي تسمونها طبيعية".

ثم سمعت صوتًا قادمًا من مكانٍ ما. كان الصوت خافتًا ويزداد علوًّا مع مضي الوقت:

"أنت أحمق! لا فائدة ترجى منك! خذلت عائلتك وأصدقاءك"

أخذ الصوت يرتفع وخالطته أصوات أخرى ميزت من بينها صوتَ الطبيب الذي قال:

"اهدأ.. ستكون على ما يرام"

ثم أمرَ إحدى الممرضات بإحضار حقنة ما. اختلطت الأصوات داخل رأسي فلم أعد أميز أيًّا منها. أصابني هلعٌ شديدٌ وشرعت في الصراخ:

"اصمتوا! اصمتوا جميعًا! دعوني وحدي! ماذا تريدون مني؟!"

شعرت بعد ذلك بسائل بارد يسري في عروقي وأخذَتْ الأصوات تخفت شيئًا

فشيئًا فأدركت أنهم حقنوني بمادة ما. أصاب الخدَرُ أطرافي فلم أعد أستطيع الحراك. سكنت الرجفة وغامت عيناي إلا أني أبصرتُ ذلك الشيطان الذي طالما تبعني أينما ذهبت منزويًا في أحد أركان الغرفة. كان ينظر إليَّ ويبتسم مشيراً إليَّ بأنه سيقتلني يومًا ما. أتراهم محقون؟ هل سجنني عقلي حقًّا؟ إنهم يقولون إن أقصى السجون هي تلك التي يصنعها عقلنا. ثم ما لبث الخدر أن أصاب أفكاري فأخذت تسكن شيئًا فشيئًا. لم أدرِ ماذا حدث بعد ذلك إلا أن الظلام غطى كل شيء.

***

سمعت صوتها يطرق أذني. إنه صوت أنثوي مألوف إلى حدٍّ كبيرٍ، ربما لامرأة عجوز. أنا متيقن من أنني سمعته من قبل ولكن ليست لدي أدنى فكرة عن كيف ومتى سمعته. تردد الصوت داخل نفسي وملأ أركاني. ترى ما هذا الصوت ومن أين يأتي ولمن يكون؟ بحثت حولي علِّي أجد مصدر الصوت. فوجدت حديقة غناء مليئة بأشجار فارعة الطول حتى لا تكاد تتبين قممها. ثم وجدت امرأة تجلس على العشب الأخضر وكان شعرها الفضي مسدلاً على كتفيها. كانت ترتدي ثوبًا مزركشًا فضفاضًا وقد أسندت ظهرها لإحدى الأشجار. كانت تتمتم بكلمات لم أفهمها تمام الفهم ولكني أدركت أنها صاحبة ذلك الصوت. اقتربت منها ببطء وشرعت أتفرس في ملامحها. غزت وجهها التجاعيد التي تروي أفاعيل الزمان. كان لدي شعورٌ قويٌّ بأني أعرفها حق المعرفة ولكني لا أذكر أين رأيتها من قبل. تبًّا لذاكرة الأسماك تلك التي بليتُ بها! اقتربت أكثر وأخجلني اندفاعي وتطلعي لمعرفة المزيد عنها إلا أن ذاك الخجل لم يردعني قَطّ عن الاستمرار، بل شعرت بفضولٍ بالغٍ لتبيُّن ما ترويه قسمات وجهها من حكايات عن ماضيها. خالَطني شعورٌ بأني أعي هذا الماضي جيدًا، ولكن ما بي لا أذكره؟ تصاعدَتْ الظنون بداخلي كحمم البركان الثائر، فكان عليَّ أن أضع حدًّا لذلك الفوران. خرجت كلمات مني بدت وكأنما حبستها دهرًا: "معذرة.. هل التقينا من قبل؟"

خرجت كلماتي مندفعة طائشة. نظرت إليَّ والتقت عيوننا. امتلأت نظراتي بالفضول والرهبة أما نظراتها فقد كانت تشع سكينة وهدوءًا. ذلك الهدوء الذي طالما لازم كبار السن. بدت جميلة رغم كونها طاعنة في السن. طالَ لقاء الأعين وكانت كل دقيقة تمر تزيدني يقينًا بأني أعرفها. ابتسمت ومدت يدها المجعدة لتتحسس وجهي. أضاءت عيناها حين تبسمت ما زادها جمالاً فوق جمالها. ملمس يدها ليس غريبًا عليَّ، ثم حدث ما لم يكن في الحسبان.. أخذت ملامحها تتبدل ببطء لتستحيل العجوز شابة يافعة. حدث ذلك تدريجيًّا. فزعت ونزعت يدها بقوة عن وجهي. وقفت مشدوهًا وكأن شيئا ما قد مسني. تسمرت في مكاني رغم رغبتي في الفرار. بدت متفاجئة من ردة فعلي المبالغ فيها فأدركت أنه علي الاعتذار:

"آسف.. لم أقصد أن.. ."

عجزت عن إتمام كلماتي التي خرجت مختنقة، فقد أدركت أخيراً من تكون. استعادت ابتسامتها الهادئة قائلة:

"ألا تعرفني يا سليم؟"

ثم أخذ اسمي يتردد في كل مكان. نظرت حولي في فزع وسمعت حفيف الأشجار وكأنما يردد كلمتها الأخيرة بصوتٍ عالٍ.

"سليم.. سليم.. هيَّا استيقظ يا رجل"

فتحت عيني لأجد إحدى الممرضات وقد دنَتْ مني وأخذت تتفحصني. ترى أكان هذا محض حلم نسجه عقلي؟ أم أنها حقيقة لا مراء فيها؟

"أين أنا؟"

زفرت الممرضة في ضيق وقالت:

"ألم يسبق لنا أن حسمنا هذا الأمر؟ ما بك تعيد السؤال ذاته مئات المرات؟"

شعرت بالخجل من نفسي:

"آسف، أنا فقط.. ."

قالت في حنو:

"لا عليك، أنت في المشفى".. ثم تابعت في نفاد صبر: "والآن اصمت، ودعني أتابع علاماتك الحيوية".

لم أعر كلامها انتباها وسارعت بقول:

"ألديكم حديقة هنا؟"

انعقد حاجباها في استغراب وقالت:

"نعم، ولِمَ السؤال؟"

فقلت:

"أثمة أشجار عملاقة فيها؟"

تعالت ضحكاتها في استهجان ثم التفتت نحوي وقد أيقنتُ من نظراتها أنها تظن أنني أحاول مداعبتها وإطالة الحديث معها فحسب، وقد بدا ذلك جليًّا فيما قالته لي:

"اسمع يا سليم، أنا لست تلك الفتاة التي يسهل خداعها. ما أعلمه يقينًا هو أنه لدينا حديقة جميلة. أما عن تلك الأشجار العملاقة، فيجدر بك البحث عنها في غابات الأمازون!"

قالت ذلك بينما شرعت تقيس ضغط دمي فتابعت في تهكم وقلة حيلة:

"وكيف أذهب إلى هناك وأنا مقيد بإحكام إلى ذاك السرير؟"

لم تتوقف لحظة عن عملها وكتمت ضحكة كادت تتفجر منها قائلة:

"ابحث عنها في أحلامك إذًا."

لملمت أغراضها وغادرت الغرفة؛ فقد آثرت ألا تضيع وقتها مع ثرثار مثلي. أما أنا فقد ظلَّ الحلم عالقًا بذهني، وظلت صورة المرأة متجسدة أمام ناظري. أسرتني نظراتها وسكنت وجداني، وشغلني كيف استحالت شابة يافعة بعد كونها امرأة عجوزًا. ترى، أتكون من ظننتها حقًّا؟ وددت لو أراها ثانية حتى أتحقق من صدق ظنوني. لم أدرِ حينها أن ظنوني تلك ستتكفل بتعذيبي طيلة الفترة القادمة.

***

كان الوقت قبيل الفجر، كنت أركض حافي القدمين بين الأشجار الكثيفة وكأنما أفر من شيءٍ ما أجهل ماهيته. أركض بلا توقف وكأن وحشًا ما سيلتهمني إن توقفت عن الركض. أسابق الزمن ولا أكاد أشعر بقدمي. أبحث عن شيء نفيس ضاع مني. ترى، هل أبحث عن تلك المرأة العجوز؟ ارتعد جسدي وفزع عقلي لاحتمال أني قد لا أجدها أبدًا. سرعان ما نحيت ذلك الخاطر جانبًا ثم أطلقت العنان لقدمي وانطلقت أركض بسرعة أكبر. انساب العرق على جبيني كالمطر المنهمر الذي بلل ثيابي بدوره. أركض وأركض ولست أعرف ممَ أهرب. ثم انتابني هلع شديد ونظرت خلفي باحثًا عما يخيفني فتعثرت وسقطت أرضًا. سالت الدماء من ركبتي. شعرت بتدفقها إلا أنني لم أستطع رؤيتها بسبب الظلام الدامس الذي غطى المكان. كانت الأرض مبتلة ومغطاة بالوحل. انتقل البلل إلى جسدي مخترقًا ثيابي الخفيفة فشعرت بالاشمئزاز والبرد في الوقت نفسه. لا أدري كم مكثت كذلك. حاولت النهوض إلا أني عجزت عن ذلك تمامًا ربما لإصابة ركبتي. أعدت المحاولة فتعثرت مرة أخرى وهذه المرة سقطت على وجهي ودلف الماء والوحل إلى فمي وقمت بابتلاعه، فاخترق أعضائي المهترئة. لم أجرؤ على الوقوف مجددًا وإنما بقيت مستلقيًا هكذا على وجهي ثم شرعت في البكاء. امتزجت دموعي بعرقي المنهمر وامتزج كلاهما بالوحل الذي غطى وجهي فلم أعد أستطيع التنفس. حاولت الصراخ فخرجت صرختي مكتومة لم تسمعها سوى الحشرات التي تقطن أرض الغابة المطيرة. ثم شعرت بشيءٍ ما يركض نحوي. كانت خطواته خفيفة

وسريعة إلى حدٍّ ما. ترى، هل سمع أحدٌ بكائي أخيرًا فجاء لينقذني؟ حاولتُ رفع رأسي لأبصره إلا أني شعرت بوهن يغمر جسدي فقررت الاستسلام. سمعت صوت أنفاسه المرتفع؛ فقد كان يلهث طالبًا بعض الهواء. أشفقت عليه إلا أن تلك الشفقة لم تدم طويلا بل استحالت ذعرًا؛ فسرعان ما رفعت رأسي لأجد ذئبًا يحملق في. وثبت واقفًا متجاهلا إصابتي وألمي البالغ. حاولت متابعة الركض إلا أني سقطت من جديد، وحينها كنت على يقين من أنه سيلتهمني كطعام الفطور. واحسرتاه! سأغدو طعامًا لذئبٍ في غابة مطيرة ذات أرضٍ زلقة. يا لها من نهاية بائسة! إلا أن الذئب لم يأكلني بل خابت جميع توقعاتي وفهمت ما كان يريده الذئب. أخذ يجرني من ثيابي مشيرًا إليَّ أن أتبعه. فكرت قليلاً..

"ما أسوأ ما يمكن أن يحدث؟"

اتخذت قراري سريعًا وتبعت الذئب إلى حيث كان يقودني. كان يسير متباطئًا وكأنما كان على علمٍ بإصابتي. سار بي بين الأشجار وكلما هممت بالوقوف طلبًا لبعض الراحة، كان يتوقف قليلاً وينظر في عيني وكأنما يستنجد بي، فأجدني مرغمًا على متابعة السير. قلت لنفسي:

"إلى أين يقودني ذلك الحيوان؟"

وسرعان ما وجدت إجابة لسؤالي فقد نظر الذئب نحو الأفق وأخذ يعوي. شعرت بالخوف؛ فما أدراني إن كان ينوي استدعاء قطيعه ليلتهموني جميعًا؟ انتابتني رغبةٌ في الفرار، إلا أني تذكرت أني قد وضعت ثقتي في ذلك الذئب وقد كان أهلاً لتلك الثقة. بزغ الفجر وأخذت أشعة الضوء تغزو كبد السماء. نظرت إلى حيث كان ينظر الذئب، وانشرح صدري لما رأيت. رأيتها.. قادمة من بين الأشجار. كانت الأشجار تظللها وكأنما تنحني لجمالها الخلاب وكأنه ثمة علاقة بينهما. كانت تحدث الأشجار بلغة لم أفهمها، وتربت على جذوعها فتهدأ ويسكن اضطرابها. حسدتها على ذلك كثيرًا. أخذت تقترب مني ببطء فشعرت بهيبة تغمرني. إنها

هي.. بملامحها المألوفة ذاتها، شابة في عمر الزهور. اقتربت أكثر فرأيت ثوبها المزركش، وانحنت هي تقبل ذلك الذئب الذي أخذ يلعق وجهها بدوره مرحبًا بوجودها. ضحكت ضحكة صافية ثم نظرت إليَّ وابتسمت قائلة:

"كيف حالك يا سليم؟ ألم تعرفني بعد يا بني؟"

بني؟! لقد اعتقدت أنني أكبرها عمرًا! أيعقل أن تكون.. .

وفجأة ارتسمت على وجهها أمارات الخوف الشديد، واستدارت من دون أن تتلفظ بحرف واحد وفرت هاربة. صرخت

"ما الأمر؟"

نظرت خلفي فوجدت ذلك الشيطان يرمقني بنظراته الحادة مبتسمًا في خبث. فصرخت به في غضب جم:

"أتبعتني إلى هنا أيها المحتال؟ انظر كيف أخفت الفتاة؟ لم لا تتركني وشأني وترحل بعيدًا؟"

لم يجب الشيطان بل ظلَّ يرمقني بنظراته المخيفة ذاتها. أخذ الذئب يعوي وكأنما يحاول إخافته وإجباره على الابتعاد إلا أن المحتال لم يفعل بل أخرج سلاحًا كان بحوزته وطعن الذئب. سدَّد ثلاث طعنات موفقة أمام ناظري إلى جسد الذئب المسكين. أخذ الذئب يعوي عواء يزداد خفوته مع مضي الوقت إلى أن خر صريعًا. صرخت بذلك الشيطان:

"بربك ماذا فعلت؟ لقد قتلته أيها المجرم! وستنال عقابك."

ثم التفت إلى الذئب وانحنيت أرضًا لأمكث إلى جواره. نظر الذئب إلى عيني وكأنما يودعني. قلت باكيًا:

"تماسك أرجوك.. أرجوك لا ترحل!"

نظرت إلى الشيطان فإذا بابتسامته الصفراء المرعبة تزداد اتساعًا. أعدت النظر إلى الذئب الذي جحظت مقلتاه وتعلقت عيناه بالسماء. قلت له:

"أعدك بأن أنتقم من ذلك القاتل، ولكن ابقَ معي أرجوك"

لقد توطدَتْ علاقتي بذلك الذئب في الدقائق القليلة التي قضيناها معًا، ولم أكن أتخيل أن أفارقه بهذه السرعة حتى في أسوأ كوابيسي. نظرت إلى حيث كان الشيطان واقفًا فوجدتُه على حاله إلا أنه سرعان ما تبخَّر فلم يعد له أيُّ أثرٍ. نظرت إلى الذئب من جديدٍ، وأخذت أهزه بقوة محاولاً إعادة روحه المسروقة، إلا أن محاولتي باءت بالفشل. ثم سمعت صوتها يقول:

"للأسف، لقد فارق الحياة!"

فأدركت أنها قد عادت، إلا أني لم أنزع بصري عن الذئب هذه المرة. شعرت بعجزٍ شديدٍ؛ إذ لم أستطع إنقاذه. احتضنته وصرخت:

"لاااا!"

أفقت من كابوس اليقظة ذاك فزعًا، بينما لا يزال صراخي مستمرًا وصوت عواء الذئب يدوِّي في أذني. كنت أرتعد والعرق يغمرني. سمعت صوتًا يحاول عبثًا طمأنتي:

"لا عليك.. أنت بخير. إنه محض كابوس مزعج."

إلا أني لم أهدأ قط بل ازدادت رجفتي. هرعت الممرضة إلى الخارج لتستدعي الطبيب بينما بدأت أتشنج. لا أعلم شيئًا عما حدث بعد ذلك.

***

كنت أتظاهر بالنوم بينما أسترق السمع إلى حديث الطبيب والممرضة. أبقيت عيني مغمضتين في حين التقطت أذناي بعض الكلمات:

"ماذا نفعل يا دكتور؟ الهالدول لم يجد نفعًا. ما زال الفتى غارقًا في هلاوسه"

فتحت عيني فرأيت الطبيب ينظر إليَّ قائلاً:

"المسكين.."

ثم أعاد بصره إليها وقال:

"فلنحاول رفع الجرعة إذا.. وإن لم يأتِ الأمر بالفائدة المرجوة فسنضطر لتغيير مضاد الذهان نفسه"

بدا لي أنه لم ينتبه إلى استيقاظي؛ فقد قال مخاطبًا الممرضة:

"أيقظيه برفقٍ هذه المرة"

حملت كلماته بعضَ العتاب الحاني. أشارت الممرضة إليَّ قائلة:

"انظر، لقد استيقظ بالفعل".

أسرع الطبيب يتفحصني وقال:

"سليم، هل تسمعني؟"

أومأت برأسي إلا أنني لم أنطق حرفًا واحدًا، فتابع:

"سليم، أتعرف أين أنت؟"

ابتسمت فلطالما سألت هذا السؤال ولم يعطوني إجابة شافية تروي ظمأ فضولي فأعرضت عن طرحه. أعاد الطبيب السؤال نفسه راجيًا إياي أن أرد عليه ثم قال متفهمًا:

"لا عليك إن كنت لا تريد إعطائي إجابة الآن. سأعود لأخذها لاحقًا.. نحن لدينا متسعٌ كافٍ من الوقت."

بادرته بالسؤال:

"إلى متى سأمكث هنا؟"

أجاب باقتضاب:

"إلى أن تتحسن حالتك."

ثم نظر إلى الممرضة نظرة ذات مغزى وهمس بدوره في أذنها ببضع كلمات لم ألتقط منها شيئًا قَط. أشار إليها أن تتبعه وهمًّا بالخروج. أما أنا فسمعت ذلك الصوت يطرق أذني ثانية:

"أنت ساذج! ولن تدرك ما يُدبَّر لك ما بقيت هنا."

تلفت حولي في محاولة لتحديد مصدر الصوت الذي تابع:

"أنت أخرق! لا فائدة تُرجى منك. إنهم يسعون لقتلك. انظر كيف يصوبون نظراتهم تجاهك!" قلت بصوت متحشرج:

"اصمت!"

أسرعت الممرضة تقول:

"دكتور، إنه يهلوس ثانية!"

امتقع وجه الطبيب ثم قال بصوت خالطه الأسى:

"دعيه.. إنه لن يتوقف عن الهلوسة لفترة ليست بالقصيرة."

ثم صرختُ:

"قلت اصمت!"

وبدأت أتلوى في فراشي. هرع الطبيب والممرضة نحوي وأمسك الطبيب يدي قائلاً:

"اهدأ يا سليم."

فصرخت به:

"لا تلمسني.. ابتعدا عني! أنتما تسعيان لقتلي تمامًا كذلك الشيطان و..."

لم أستطع إتمام ما أقول وإذ بملامح الطبيب تتبدل لتتخذ وجهًا مألوفًا لي. وجه أمقته كثيرًا ووددت لو لم أرَه في حياتي بل وددت لو أفقد بصري فلا أستطيع رؤيته.

إنه وجه ذلك الشيطان! صعقت وهالني الأمر كثيراً. سحبت يدي بقوة من بين مخالبه وأخذت ألهث طالبًا الهواء. بدأ لعابه يسيل واتسعت ابتسامته الصفراء الوقحة. صرخت مستجديًا إياه "لا تقتلني، أرجوك!" لم يجب بل لمعت عيناه واتسعت، ما أخافني كثيراً. إلا أن أكثر ما أثار فزعي كان تلك الابتسامة المرتسمة على وجهه. سأل الشيطان بصوته الأجش:

"أأنت بخير يا سليم؟"

لم يلائم صوته ما قال ثم تذكرت أنه كان طبيبًا بالأساس. أغمضت عيني في استسلام وحين فتحتهما وجدت الطبيب قد استعاد ملامحه القديمة. لم أستطع التفوه بكلمة؛ فالموقف تجاوَز قدرتي على الاستيعاب. كيف استحال الطبيب شيطانًا ثم استعاد هيئته الأولى؟ ثمة شيء لا أفهمه. انعقد حاجباي ونظرت إلى الطبيب مستغربًا، وحين استعدت قدرتي على الكلام سألته:

"ماذا حدث يا سيدي؟"

فأجاب في أسفٍ:

"لا يهم.. استرح الآن؛ فقد نالت منك خيالاتك."

دثرتني الممرضة بالغطاء وأسرعت تتبع الطبيب الذي خرج بدوره من الغرفة تاركًا إياي غارقًا في ذهولي. ترى، هل نالت مني خيالاتي حقًّا؟ أهي محض خيالات مزعجة صنعها عقلي المريض؟ لا! أنا لست مجنونًا! أنا في كامل قواي العقلية. اختلطت الأفكار في رأسي. ترى، هل سيزورني ذلك الشيطان مجددًا؟ تمنيت ألا يحدث هذا. أغلقت الممرضة الباب وغرقت في نحيب مستمر. ترى، ماذا حدث لي؟ ما الجرم الذي اقترفته في حياتي لأستحق كل ما يجري لي الآن؟ أهو جرم فظيع إلى هذا الحد؟ لم يدر بخلدي حينها أن ثمة جرمًا كبيراً بانتظاري على الطريق، وأن ذلك الجرم سيحيل حياتي جحيمًا لا يطيقه إنسان.

***

كنت أركض على غير هدى في الدهاليز الممتدة أمام ناظري فلا أكاد أتبين نهايتها. كنت أركض بلا توقف ولا أكاد ألمح بعض الأبواب الموصدة على مد البصر حتى أسرع نحوها محاولاً فتح أحدها بكل ما أوتيت من قوة. أعجز عن فتحه فأتجه لغيره ثم ينتهي بي المطاف وقد حاولت فتح جميع الأبواب دون جدوى. أعيد الكرة في نفاد صبر. وأخيرًا أنجح في فتح أحد الأبواب بصعوبة بالغة. فأجده يؤدي إلى دهليز آخر طويل. أسارع بالركض في ذلك الدهليز دونما تفكير في أين ستقودني قدماي. أسمع صوت أنفاسي المتسارعة وضربات قلبي الذي يكاد يغادر صدري تتقافز إلى أذني وتصيبني بالهلع. سرعان ما أجد مجموعة أخرى من الأبواب تنتظرني في نهاية الدهليز. تساءلت لوهلة:

"أيها أختار يا ترى؟"

اخترت أحدها ولم أعبأ كثيرًا باختياري. دهشت لكون الباب قد انفتح بسهولة ويسر شديدين. انطلقت مسرعًا إلى الداخل ولم أعجب حين رأيت دهليزا آخر وتوقعت أن يقودني بدوره إلى سلسلة أخرى من الأبواب ولم يخب ظني كثيرًا؛ فحين قطعت ذلك الدهليز الذي بدا أطول من سابقيه وجدت في نهايته بابًا آخر. ولكن هذه المرة كان بابًا واحدًا فقط وقد كان موصدًا بإحكام. حاولت فتحه فلم أفلح، فأعدت المحاولة مرات ومرات فلطالما كنت مثابرًا دؤوبا. بدأت أختنق؛ فأنا أكره الأماكن المغلقة. نظرت حولي فما وجدت سوى جدران أربع وذلك الباب. فكرت أن أعود أدراجي ولكني كنت أخشى أن أضلّ الطريق. تحاملت على نفسي ونظرت للخلف عازمًا على سلك ذات الطريق التي أوصلتني إلى هنا، فوجدت الدهليز قد اختفى وحلَّ محله حائط خراساني. لا أدري متى ولا كيف حدث ذلك إلا أن كل شيء أصبح ممكنًا. كان الجو خانقًا ورطبًا إلى حدٍّ كبيرٍ وبدا لي أن مساحة المكان تزداد ضيقًا مع مضي الوقت وهو ما يعني أن الجدران ستطبق عليَّ

في نهاية المطاف. حاولت الصراخ فخرجت صرختي مكتومة ولم يسمعها أيٌّ كان. أتراه كابوسًا؟ كان كياني كله ينتفض بقوة. هرعت نحو الباب المغلق فقد صار أملي الوحيد في الخروج من هنا. حاولت إدارة المقبض إلا أنه خرج في يدي فمات الأمل على أعتاب ذلك الباب. لم أستسلم وظللت أطرق الباب بكل ما أوتيت من قوة فالاستسلام ليس من سمتي. ثم فتحت العجوز نفسُها الباب ولم أدرِ كيف فتحته إلا أني لم أهتم سوى باستنشاق الهواء الذي نفذ أخيرًا إلى الغرفة الموصدة، وأخذ يتسلل إلى رئتي بعد لهاث استمر طويلاً.

"لماذا تأخرت يا سليم؟ لقد انتظرتك طويلاً."

فاجأني ما قالت فكيف علمت بأني سآتي إلى هنا؟ عجبت من كونها تتنقل بهذه السهولة عبر الأزمنة المختلفة. تارة تغدو فتاة شابة يافعة وتارة تستحيل عجوزًا في الستينيات. ما بال تلك المرأة؟ ثم لمحت شخصًا يقف خلفها بابتسامته الصفراء المعتادة. إنه ذلك الشيطان! وكان يحمل ذات السلاح الذي قتل به الذئب الليلة الماضية ولا زالت دماء الذئب تقطر منه، فصرخت:

"انتبهي!"

نظرت العجوز خلفها بسرعة ثم أعادت النظر إليَّ وقد ارتسمت علامات القلق على وجهها:

"ما بك يا بني؟ لا أحد يقف هناك!"

جحظت عيناي من فرط الذُّعر فلا زال ذلك الشيطان ماثلاً أمامي بابتسامته المخيفة. حاولت تمالك أعصابي عبثًا وقلت بصوت يرتعد خوفًا:

"أمي.. ألا ترينه حقًّا؟"

ما بها؟ لقد كانت تراه قبل أن يقدم على قتل الذئب. ما الذي جرى لها؟ ثم ضحكت بعفوية وقالت:

"كف عن المزاح يا بني.. أنا متأكدة من أنه ليس ثمة أحد خلفي. ثم..."

"لاااااا!!"

صرخت فقد رفع الشيطان سلاحه وهمَّ بقتلها. أمسكت السلاح بكلتا يدي فقالت:

"أأنت بخير يا بني؟ لمَ ترفع يديك في الهواء هكذا؟ توقف عن هذا حالاً؛ فأنت تخيفني بمزاحك الثقيل ذاك!"

فقدتُ أعصابي وصرخت بها:

"يا لكِ من عجوز خرقاء! ألا ترين ذلك الشيطان المقيت الذي يقف خلفك مباشرة؟! أنقذتك لتوّي من موت محقق بسلاح ذلك الشرير ثم عدت لتأمريني بالتوقف عما تعدينه مزاحًا ثقيلاً. ليتني تركتك تموتين! ليتني لم أتكلف عناء إنقاذك!"

ويبدو أن كلامي قد أفزعها وأحزنها في الوقت نفسه فانسابت دموعها على وجنتيها. شعرت بالندم وتساءلت إن كان من اللائق أن أدعو أمي ولا سيما أي امرأة عجوز مثلها بالخرقاء. شعرت بالخجل من نفسي وتمنيت لو لم أنطق حرفًا واحدًا مما قلت. يا لي من متهور! تمنيت لو يعود الكلام إلى جوفي فيبقى عالقًا ولا يخرج أبدًا. تمنيت لو فقدت النطق حينها فلم أتفوه بكلمة. استدارت أمي وعادت أدراجها؛ فولدها الوحيد الذي انتظرته طويلاً قد أساء معاملتها. صرخت:

"أمي! لا ترحلي أرجوك! لا ترحلي يا أمي."

ازداد صوتي خفوتًا مع مضي الوقت ولا أدري كم مكثت أردد الكلمات نفسها. نظرت حولي فوجدت جدران الغرفة وقد أخذت تطبق عليَّ فأضحيت سجينها. استسلمت فقد غدوت متيقنًا من أني أستحق ذلك عن جدارة. أغمضت عيني ودفنت وجهي بين ركبتي وشرعت في بكاءٍ مريرٍ. أدركت حينها أنني بائس حقًّا.

***

استيقظت فاتحًا عيني بصعوبة بالغة وتطلعت إلى الشمس في كبد السماء. أبهَر الضوء عيني فعدت لأغلقهما بسرعة فلم تبدُ لي فكرة أن أفقد بصري هذا الصباح جيدة كفاية. أجل، لقد حل الصبح. نهار آخر سأقضيه خلف تلك الأسوار. نظرت إلى القضبان الحديدية خلف النافذة ووددت لو أملك القوة الكافية لتحطيمها. وددت لو أفر هاربًا من هذا المكان البائس. لا بُدَّ أنني في سجنٍ! سجن أطبقت عليَّ جدرانه وحطمت عظامي المتبقية. ترى، أهذا هو السجن الحقيقي؟ أم أن السجن الحقيقي يكمن في رأسي كما يزعمون؟ يا لهم من أوغاد! يريدون إقناعي بأني من سجنت نفسي كي لا أفضح حقيقة كونهم منظَّمة سرية تتلاعب بأفكاري كما تشاء! لا.. لن أرضخ لألاعيبهم ولمؤامراتهم الدنيئة ولن أدعهم يبلغون غايتهم. إنهم يحقنونني بشتى المواد التي تكاد تفقدني صوابي ويزعمون أنها علاج لمرضي المزعوم. تبًّا لخيالاتهم المريضة تلك! ترى هل أرغب حقًّا في الفرار من ذلك المكان أم أنني أفرّ من شيءٍ آخر؟ شيء لطالما طاردني وأرّق منامي. إنها أفكاري! ذلك الوحش الذي يلاحقني منذ نعومة أظافري. ذلك المحتال الذي كاد يرديني وجلبني إلى هنا حين أعجزه قتلي. إلا أن ما لا يدركه ذلك الأخرق هو أنه نجح في قتلي عدة مرات بالفعل حين كان يطرحني في فراشي بينما كنت أرجوه ليسمح لي بالنهوض، فينفجر ضاحكًا في سخرية واستهزاء ويضغط بكلتا يديه على كتفي فيثبتهما إلى الفراش ويظل ماكثًا فوقي إلى أن أستسلم وأرضخ لإرادته. وفي اليوم التالي كنت أعيد المحاولة من جديد وأنزع رداء الاستسلام عن جسدي فيهب واقفًا وقد وضع قدميه على صدري فأصرخ من فرطِ الألم فيطبق بكلتي يديه على رقبتي حتى لا يسمع أحد صوتي ولا يفتضح أمره. أشعر بالاختناق فأجزع وأحاول نزع يديه عن رقبتي إلا أني أعجز عن ذلك فسرعان ما يجثم فوقي بكامل جسده. أحاول الصراخ ثانية فلا يخرج صوتي مسموعًا. أنظر في عينيه راجيًا إياه أن يدعني وشأني إلا أن الشرر المتطاير من عينيه يقتحم عقلي بلا استئذان وسرعان ما يصل إلى أعماقي.

ثم ينزع يده أخيرًا عن رقبتي فألهث طالبًا بعض الهواء. ثم يمسك برأسي وتكاد أصابعه تحطم جمجمتي. أصرخ فيغطي فمي بيده كي لا يسمعني أي كان ثم يقحم إحدى يديه في فمي ويده الأخرى لا تزال تعصر جمجمتي. أكاد أختنق؛ فقد بلغت يده حنجرتي.

"أما زلت نائمًا؟ هيًا انهض أيها الكسول!"

أفقت من غفوتي حين سمعت صوت الممرضة وقلت في أسى:

"إنه يخنقني."

نظرت إليَّ باستغراب قائلة:

"ومن ذاك الذي يجرؤ على خنقك؟"

فقلت:

"إنه الوحش!"

تابعت حديثها باستهجان:

"لا وجود للوحوش هنا.. أنت واهمٌ!"

نظرت بعيدا تفاديا لالتقاء أعيننا فأدركت أنها قد آذت مشاعري واستدركت:

"اسمعني.. الوحوش توجد في مكان واحد فقط."

ثم أشارت بسبابتها إلى رأسي قائلة:

"هنا.. داخل عقولنا."

فسألتها:

"ألا تعيش الوحوش في الأقفاص؟"

فأجابت:

"بلى.. وكذلك عقلك، محض قفص كبير. والخيار يعود إليك.."

صمتت قليلاً ثم تابعت:

"إما أن تدعه مرتًعا للوحوش تعبث به كما تشاء وإما أن تروضها!"

تساءلت في عدم فهم:

"وكيف أروضها؟"

هزت رأسها وقالت:

"عليك أن تتعلم فعل هذا بنفسك؛ فالأمر ليس من شأني.. لكلٍّ منا وحوشه الخاصة وعليه أن يجد طريقته الفريدة لترويضها، وإلا فلن يتحمل تبعات عبثها وهو ما قد يكلفه حياته."

تساءلت ثانية:

"أليس ثمة مَن يستطيع مساعدتي؟"

ضحكت وأجابت:

"هيًّا يا رجل، ألم تذهب قَطّ إلى السيرك؟!"

أدركت حينها أنها تسخر مني فأعرضت عنها قائلاً:

"دعيني وحدي أرجوك، واحتفظي بسخريتك لنفسك."

أشحت بوجهي عنها فلم تهتم بل تابعت:

"أنا لا أسخر منك أيها المغفل! اذهب إلى السيرك وستدرك غايتك. حينها فقط ستعرف أي الوحوش عليك أن تواجه وستتعلم كيفية مواجهته. ستفهم حينها ما قصدته ولن تتهمني بالسخرية منك مجددًا."

استدارت وهمت بالمغادرة إلا أنها سرعان ما تراجعت وقد تذكرت شيئًا ما:

"أتريدني أن أخبرك شيئًا أسهل بكثير من اقتناء تذكرة للسيرك؟ انظر إليَّ!"

نظرت إليها فزعًا؛ فقد باغتني سلوكها المفاجئ، أما هي فأحضرت مرآة ووضعتها صوب وجهي. ارتسمت على وجهها ملامح الجد وقالت:

"انظر في المرآة ودقق النظر.. انظر بتمعن إلى وجهك الشاحب وستوقن حينها أن الوحش الحقيقي يكمن بداخلك وأن ما سوى تلك الحقيقة هو محض سراب وأوهام. وحين تصل إلى ذاك اليقين، ستدرك كيف تروِّض هذا الوحش وستنسى أني نعتك بالمغفل! قد تفني عمرك في محاولة فهم هذا الوحش وقد تفشل في سبر أغواره في نهاية المطاف، إلا أن حياتك ستضحى ذات قيمة. ستستحق السطور التي تسطرها عليها. ستستحق عناء الكتابة وستضحى قصتك ملهمة لمن يقرأها وستدفعهم لترويض وحوشهم الخاصة."

قالت ذلك وربتت على كتفي وهمت بالخروج. استوقفتها معتذرًا:

"أنا آسف!"

فقالت وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة رائعة:

"لا عليك يا بطل."

ثم خرجت وقد أدركت خطأ ظنوني. إنها لا تسخر مني كما زعمت، بل لم تحاول ذلك أبدًا. يا لي من مغفل!

***

دلف الطبيب إلى الغرفة وقد عزمت على سؤاله ذلك السؤال الذي حيرني طويلاً. صرت أهابه كثيرًا بعد أن استحال شيطانًا في المرة الماضية. استجمعت شجاعتي وسألته:

"متى سأغادر ذلك المكان؟ لقد سئمته كثيرًا."

تنهد الطبيب وقال:

"قريبًا.. قريبًا بإذن الله. ثم إنه سبق وأجبتك عن هذا السؤال، ألا تذكر ذلك؟"

بدا لي أن الدواء قد أصاب ذاكرتي بالعطب فأجبت:

"لا.. لا أذكر."

بدوت كالأبله وهو ما أزعجني كثيرًا، ويبدو أن الطبيب قد لاحظ انزعاجي فتساءل بدوره:

"ما بك يا سليم؟ أثمة شيء يضايقك؟"

فقلت:

"لا شيء.. لا شيء أبدًا."

فقال:

"حسنًا إذًا.. إن كان هناك ما يزعجك فلا تتردد في إخباري."

أومأت برأسي في امتنانٍ. تابع الطبيب:

"بالمناسبة، ما أخبار أمك؟ أما زالت تزورك في المنام؟"

جحظت عيناي وقد تفجَّر بداخلي بركان من الغضب؛ فقد أيقنت أنهم يتجسسون عليَّ. فزع الطبيب وأسرع يقول:

"ما الأمر يا سليم؟! ما الذي..."

لم أدعه يتم سؤاله وبدأت أتحرك محاولاً التملص من قيودي. صرخ الطبيب:

"اهدأ.. ستؤذي نفسك!"

بصقت على وجهه وشرعت أصرخ:

"أؤذي نفسي؟! ومنذ متى وأنت تهتم بإيذائي لنفسي؟ منذ متى وأنت تحرص

على مصلحتي؟ كل ما يهمك هو نفسك! أنا محض حالة ميؤوس من شفائها بالنسبة لك! حالة فشلت بغبائك في مداواتها! لا.. أنا لست مجرد حالة! أنا إنسان يشعر ولست فأر تجارب. أما أنتم فلا تشعرون بشيءٍ قَطّ! أنتم محض حيوانات! لا.. أنتم لستم حيوانات؛ فحتى الحيوانات تشعر! أنتم محض مسوخ بشرية فقدت قدرتها على الإحساس!"

قال الطبيب:

"سليم.. اهدأ أرجوك! ما الذي أغضبك إلى هذا الحد؟"

لم أتوقف عن الكلام للحظة وقلت:

"كيف علمت أن أمي تزورني في المنام؟ هل بلغت بكم الوقاحة أن تتجسسوا على أحلامي؟" صرخ الطبيب غير مصدق لما أقول:

"سليم! ما هذا الهراء؟! لقد سمعتك تذكر اسمها بينما كنت تهذي أثناء نومك. هذا كل ما في الأمر!"

صرخت:

"اصمت! سمه هراء إن شئت.. أما بالنسبة لي فهو حقيقة لا مراء فيها. والآن دعني وشأني! لا أحتمل رؤية وجهك لدقيقة أخرى! هيَّا اغرب عن وجهي!"

فقال وقد هدأ:

"حسنًا يا سليم.. سأرحل الآن ولكن اعلم أن تصرفًا متهورًا آخر قد لا يصب في مصلحتك" غادر الطبيب وبدأت أتشنج. استدعى الطبيب الممرضة وعاد أدراجه. أعطتني الممرضة حقنةَ دواءٍ مضاد للاختلاج إلا أن حدة التشنجات كانت تزداد بلا توقف بحسب ما أخبرني الطبيب. علمت فيما بعد أنني بلَّلتُ فراشي وأن الطبيب أسرع بطلب مضاد اختلاج آخر. أخبرني الطبيب كذلك بأن الزبد كان يخرج من

فمي وأني كنت على وشك الموت. قامت الممرضة بحقني بالدواء الآخر فأخذت حدة التشنجات تخف شيئًا فشيئًا إلى أن اختفت تمامًا. غامت الدنيا أمام ناظري وألقيت نظرة أخيرة على الطبيب راجيًا إياه أن يسامحني. أمسك يدي بدوره وكان آخر ما التقطته أذني هو قوله:

"لا تخف، ستكون على ما يرام."

ابتسمت ابتسامة صنعها أمل دفين، ورحت أغط في نوم عميق. لقد نجوت بأعجوبة!

***

كان الوقت قرب غروب الشمس، وجدتني أسير في ذات الغابة المطيرة التي زرتها سابقًا. تساءلت إن كان هذا محض حلم مزعج آخر. ترى، هل سأرى أمي هذه المرة أيضًا؟ أنا متشوق لرؤيتها؛ فلدي الكثير لأرويه لها وعليَّ أيضًا أن أعتذر منها عمَّا بدرَ مني في المرة السابقة فقد أزعجتها كثيراً. سأخبرها أيضًا عن رغبتي في الذهاب إلى السيرك لأرى الوحوش الموجودة هناك. لطالما اصطحبتني إلى أماكن رائعة حين كنت صغيراً وسأصطحبها أنا هذه المرة إلى السيرك علِّي بذلك أرد شيئًا من جميل صنعها وأجعلها تنسى كلامي المؤذي. ولكن، أمي تخشى الوحوش كثيراً، فما العمل إذًا؟ قد أصطحبها إلى مكانٍ آخر بدلاً من ذلك. لا شك أنها ستسعد كثيراً بالأمر. وبينما أنا غارق في أحلامي وجدت بقع دماء على أرضية الغابة. ظننتها دماء حيوان ما؛ فنحن في غابة في نهاية المطاف. دققت النظر فوجدت الكثير من البقع المماثلة. كانت مصطفة وتقود إلى مكانٍ ما. دفعني فضولي لمعرفة إلى أين تقود هذه الدماء، ولأي كائن تكون.. فتبعتها. بدا لي أن القاتل قد نفَّذ جريمته في الغابة بين الأشجار ثم قام بسحب ضحيته إلى مكان آخر ليلتهمها في هدوء. دفعني حظي العاثر لتتبع خطى ذلك القاتل. تبعت الدماء طويلاً إلى أن وصلت إلى شيءٍ

لم أتوقع رؤيته في تلك الغابة. قادتني الدماء إلى كوخ خشبي متهالك. ترددت قليلاً في الدخول إلى الكوخ إلا أن فضولي وتهوري دفعاني إلى الدخول. وداخل الكوخ، كان الوضع مزريًا إلى حدٍّ كبيرٍ. لم يكن هناك شيء في مكانه بل كان كل شيء مبعثرًا وبالكاد تستطيع السير على الأرضية المهترئة. صرخت:

"هل من أحدٍ هنا؟"

لم يجب أحد فأعدت السؤال:

"يا أهل الدار.. أثمة أحد في هذا المكان؟"

تذكرت أني كنت بصدد البحث عن أمي فتابعت البحث عنها كطفل ضلَّ طريقه وهام في الطرقات باحثًا عن أمه. اعتقدت أن البحث عنها في ذلك الكوخ الخشبي لم يكن فكرة جيدة فهممت بالخروج إلا أني قبل خروجي لمحت جسدًا ما مطروحًا على الأريكة. اقتربت منه لأتبين لمن يكون، وما رأيته حينها جعلني أتمنى لو فقدت بصري قبل أن أرى هذا المشهد؛ فقد رأيت أمي ملقاة على الأريكة وكانت ثيابها ملطخة بالدماء. تسمرت في مكاني محدقًا في عينيها الجاحظتين من فرط الهلع. لم أدرِ ما كان عليَّ أن أفعل إلا أني هرعت إليها وشرعت أهزها قائلاً: "أمي.. أمي.. أرجوك ردي عليَّ."

ازداد هلعي واضطرابي حين لم أتلقَّ جوابًا وأخذت أهزها بعنفٍ أكبر:

"أمي.. كفاك مزاحًا واستيقظي حالاً! أمي، سئمت دعابتك الفارغة تلك فاستيقظي أرجوك!" انسابت دموعي وخارت قواي وقلت:

"أمي.. أرجوك لا تتركيني وحيدًا. سأضحى ولدًا مطيعًا وسأمتثل لجميع أوامرك. أعدك بأني لن أمازحك ثانية ولكن أرجوك كفي عن المزاح الآن!"

لم ترد أبدًا فتابعت في ذعرٍ:

"أمي، كفي عن المزاح!"

ثم تذكرت أني لم أعتذر بَعدُ عن فعلتي السابقة وأنها لم تسامحني بعد فقلت:

"أمي، أنا آسف! لم أقصد إهانتك بل كنت أحاول حمايتك فحسب، وأعترف بأنني أخطأت بحقك. لن أبرر فعلتي؛ فأنا حقًّا مذنب وأعدك بألا أكررها، ولكن سامحيني أرجوك."

لم تجب بل طغى الصمت الرهيب على الموقف. تفقدت نبضها فلم أجد شيئًا فأيقنت أنها قد فارقت الحياة. لقد غادرت الدنيا من دون أن تسامحني وقد آلمني ذلك كثيراً.

"قتلتها أيها المجرم؟!"

سمعت صوته الأجش قادمًا من مكان ما. إنه ذات الصوت الذي أعرفه جيدًا. التفتُّ نحو مصدر الصوت لأجد ذلك الشيطان واقفًا عند الباب منصبًا وجهه تجاهي وقد اعتلت وجهه نظرات الغضب فتساءلت:

"ما الذي أتى بك؟"

قال والشرر يتطاير من عينيه:

"هذا ليس من شأنك!"

ثم أشار إلى أمي قائلاً:

"لماذا قتلتها؟! يا لك من ناكر للجميل! أتقتل من ربتك صغيراً؟"

صرخت:

"لم أقتلها!"

فقال وقد وضع يده على فمي:

"بل قتلتها! انظر إلى بقع الدماء على ثيابك، إنها الدليل القاطع!"

نزعت يده عن فمي بالقوة وقلت:

"سبق وقلت لك أني لم أقتلها.. ثم عن أي بقع دماء تتحدث؟"

نظرت إلى ثيابي غير مصدق لما يقول وارتعت حين رأيت عليها بقع دماء بالفعل. أمسكت بثيابي في فزع قائلاً:

"واربَّاه! هذا غير ممكن!"

ثم قال الشيطان "أرأيت؟ والآن أخبرني، لمَ قتلت أمك؟"

صرخت:

"أنت كاذب! فأنا موقن من أن تلك البقع لم تكن هنا قبل قليل، ثم إن بقع الدماء على جثة أمي جافة تمامًا، فكيف انتقلت إلى ثيابي؟!"

فقال بصوتٍ مرعبٍ:

"انظر إلى حذائك."

امتثلت لأمره ونظرت إلى حذائي وسألته:

"ما به؟"

فأجاب:

"إنه مبلل بالطين، لقد قتلت أمك في الغابة بين الأشجار ثم أحضرتها إلى هنا!"

فصرخت به وقد جنَّ جنوني:

"أتظنني أصدِّق قصتك الخيالية تلك؟ إنها لا تنطلي على طفلٍ صغيرٍ! فكيف اعتقدت أني سأصدقها؟ أنا لم أقتل أمي ولا آبه إن صدقتني أم لا! أنت واهم.. أتسمع؟ أنت واهم!"

أخذ الشيطان يضحك بصوت مرتفع. أصابته نوبة ضحك هستيري ما أثار غضبي فقلت:

"علام تضحك يا عديم الإحساس؟!"

ثم تذكرت محاولته قتل أمي في المرة الأخيرة التي رأيته فيها فصرخت به:

"إذًا فأنت الذي قتلتها! أنت من قتلها وتحاول إلصاق التهمة بي! أجل، لقد حاولت قتلها سابقًا فلم تفلح ولذا حاولت مجددا!" ارتفع صوت ضحكاته وازدادت وتيرتها إلى حدٍّ مرعبٍ. أمسكت بتلابيبه وأخذت أهزه قائلاً:

"توقف عن الضحك الآن؛ فليس ثمة ما يدعو للضحك."

قال:

"لا يمكنك تجاهُل كل الأدلة التي أشرت إليها. أنت القاتل!"

أخذ يضحك مجددًا فهمست به في خضوع راجيًا إياه أن يخبرني الحقيقة:

"أخبرني، هل قتلتها حقًّا؟"

توقف عن الضحك أخيرًا وارتسمت على وجهه ملامح الجد ثم أومأ برأسه دون أن يتلفظ بحرف. استدار بعد ذلك وهمَّ بالخروج فقلت:

"انتظر! إلى أين أنت ذاهبٌ؟"

لم يعرني انتباهه بل سار نحو الباب في صمتٍ وسرعان ما اختفى. أعدت النظر إلى أمي المستلقية على الأريكة وأمسكت بيدها الباردة كبرود الثلج. أدنيت يدها من شفتي وقبَّلتها ثم همست لها:

"سامحيني يا أمي"

انسابت دموعي على يدها فغمرتها. استلقيت إلى جوارها ووضعت يدها على كتفي مدركا أنها المرة الأخيرة التي أبيت فيها بين أحضانها.

***

توقف المطر عن الهطول وسطعت الشمس لتغزو كبد السماء. داعبت أشعتها الذهبية وجهي فاستيقظت. فتحت عيني لأجد أمي ماكثة إلى جواري. جسدها بارد ولا حياة فيه. حاولت إغماض عينيها كي لا تؤذيهما أشعة الشمس الحارقة. ولكن أي إيذاء يمكن أن يلحق بها أكثر مما حدث؟ بعد ذلك تذكرت شيئًا هامًا، قلت لنفسي:

"لم يكن هذا محض حلم مزعج إذًا!"

تمنيت لو كان كذلك إلا أن هذه ليست الحقيقة. لقد ماتت أمي بالفعل وها هو ذا جسدها قابع إلى جواري بلا حراك. ذلك الجسد الذي كان ينبض بالحياة يومًا، أضحى جثة هامدة! نهضت واقفًا وانطلقت نحو الباب. ألقيت نظرة أخيرة على أمي قبل أن أغادر ذلك الكوخ المشئوم. لم أكن أريد ترك أمي بمفردها إلا أنني استدرت وفررتُ هاربًا. كنت أركض كالمسوس بين الأشجار الكثيفة. أسقط وأعاود الوقوف من جديد لأركض بسرعة أكبر. كنت أفرُّ من أفكاري! ذلك الوحش المخيف الذي يسكن رأسي. لم آبه لجسدي المتعب، ولم أستمع لرسائل التحذير التي أرسلها لي. لم أهتم به مطلقًا بل تجاهلته تمامًا. كان يحاول إخباري بأن التعب قد أنهكه ونال منه وأنه على وشك الانهيار إن لم يكن قد انهار بالفعل. لم أستمع لشكواه ولم أعره انتباها قط بل شرعت أركض بسرعة فاقت سرعتي السابقة. أركض وأركض بلا توقف، تظلني أوراق الأشجار الكثيفة. غمرني العرق الغزير وأخيراً سقطت أرضًا. كان وجهي ملاصقًا لأرضية الغابة. خارت قواي وانهمرت دموعي الدافئة وامتزجت بعرقي الغزير وامتزج كلاهما بتراب الغابة. استجمعت ما تبقى من قواي المهدرة وأطلقت صرخة ألمٍ مدوِّية، كانت كفيلة بإفزاع الطيور التي تسكن ما حولي من أشجار. أغمضت عيني وأطلقت صرخة أقوى، جعلت الحيوانات الصغيرة تفر هاربة من جحورها. شعرت بالأسف لكل من الحيوانات والطيور إذ أفزعتهما

إلا أني لم أعبأ بذلك كثيرًا. سمعت صفيرًا في أذني فأيقنت أني آذيتهما بصوتي المرتفع. لم أهتم بهذا أيضًا وحاولت النهوض من جديد ولكني لم أستطع فعل ذلك، فأيقنت أن عظامي تحطمت من جراء سقوطي الأخير فاستسلمت لرقادٍ طويلٍ.

استيقظت بعد ذلك لأجد نفسي في مكان أعرفه جيدًا، أحفظه عن ظهر قلب. لا أدري كم دام رقودي على أرضية الغابة وليست لدي أدنى فكرة عن كيف وصلت إلى هنا. إنها غرفة مكتبي بلا شكٍّ. كم جلست صوب ذاك المكتب لأستذكر دروسي الجمة ولأطالع كتب الفيزياء في شغفٍ بالغٍ. أذكر أنني كنت أدرِّس الفيزياء بالجامعة وقد كنت طيلة دراستي لها في المدرسة متفوقًا بل نابغة. كنت أحفظ جميع قواعدها عن ظهر قلب. كنت عبقريًّا بكل ما تحويه الكلمة من معانٍ، وكان زملائي يغبطونني لذلك. كنت جالسًا على الأرض أتطلع إلى السقف المرتفع فوقي. كان بعيدًا جدًّا إلا أن آمالي وطموحاتي كانت تبلغه بسهولة ولا تلبث أن تخترقه حتى تبلغ عنان السماء. نظرت حولي أتفحص كل شيء بأعين ثاقبة وكأنما أستعيد شريط ذكرياتي مع تلك الأشياء. عبق المكان يذكرني بالماضي الذي يحمل بين طياته ذكرياتٍ أليمة وأخرى رائعة. كنت دومًا حالمًا وطموحًا إلى أبعد الحدود. كان ذلك المكان هو المكتب والمختبر وأحيانًا يستحيل غرفة نوم إذ كان يغلبني النوم أحيانًا وأنام بينما أستذكر دروسي. نظرت صوب المكتب فوجدت كوب الشاي الذي صنعته أمي لا زال هناك بانتظاري. تحسست كوب الشاي فوجدته لا يزال دافئًا. تعجبت لهذا الأمر كثيرًا؛ فكيف لكوب الشاي أن يظل دافئًا طيلة الفترة الطويلة التي غبت فيها عن المنزل؟ ثم إن أمي قد فارقت الحياة منذ بضع ساعات، فمتى صنعت هذا الكوب إذًا؟ إن كل ما يحدث لي مناقضٌ تمامًا لكل قواعد الفيزياء التي درستها بالجامعة. لا شيءَ منطقيٌّ هنا! كيف لي أن أنتقل بهذه السهولة بين الزمان والمكان دون جهدٍ يُذكَر؟ ثم تذكرت شيئًا هامًّا لا أدري كيف غاب عن ذهني.. أنا لم أعرف بعد ما إذا كنت قد قتلت أمي! تذكرت بعد ذلك مذكراتي التي لم أنقطع

عن كتابتها يومًا. لا بُدَّ أنها في مكان ما هنا. انطلقت أبحث عنها كالمجنون بين أوراقي. فتحت جميع الأدراج وبعثرت جميع الأوراق الموجودة داخلها. كان من بينها أوراق تخص الجامعة، سطرت عليها معادلات فيزيائية كثيرة حتى يتسنى لي حفظها. وكانت هناك أوراق أخرى تخصني أنا، خطابات غرامية لأشخاص وهميين لا يعيشون سوى في مخيلتي ولا مكان لهم على وجه البسيطة. ثم وجدتها.. إنها مذكراتي! أخذت أتصفحها باحثًا عن إجابة؛ فلا شك أن إجابة سؤالي موجودة في مكان ما هنا.. في إحدى تلك الصفحات المهترئة. أخذت أقلب الصفحات برفق متوخيًا الحذر كي لا أمزق إحدى الأوراق. لا بُدَّ أن أجد إجابة لسؤالي المحير.. إجابة تشفي غليلي وتطفئ النيران المتقدة داخلي. من قتل أمي؟ يا لَهُ من سؤال! مَن قتلها داخل الغابة وقام بسحبها إلى الكوخ الخشبي؟ لا بُدَّ أنها تألمت وخافت كثيرًا! لقد روَّعها ذلك الوحش عديم الرحمة! إن أمي تخشى الوحوش. لطالما كرهت رؤيتها ولذلك خشيت اصطحابها معي إلى السيرك. ولكن ليتني أخذتها إلى هناك فلربما تعلمت ترويض ذلك الوحش. كان ذلك لينقذها من موت محقق! ندمت كثيرًا إلا أن الندم لا يجدي نفعًا في هذه الحال. لا طائل منه! الشعور بالذنب هو أسوأ شعور يمكن أن يعتري الإنسان من وجهة نظري الخاصة. أعلم أن ذاكرتي عديمة النفع ولكن هل يمكنني أن أنسى أني قتلت أمي؟ بحثت طويلاً في المذكرات إلا أنني لم أجد شيئًا ذا قيمة. محض مذكراتٍ سخيفة لا معنى لها. عجبت لهذا الهراء الذي أفنيت وقتي الثمين في كتابته. يا لسذاجتي! لم أستسلم؛ فمثلي لا يعرف الاستسلام وأخذت أبحث بجهدٍ أكبر إلى أن وصلت لتلك الورقة التي انتهت عندها الكلمات المكتوبة أو على الأقل تلك المرئية بالنسبة لي؛ فلربما كتبت البعض الآخر بالحبر السري أو ما شابه. غضبت كثيرًا؛ إذ لم أجد شيئًا مفيدًا في تلك الأوراق. وجدت آثارًا لقصة الحب التي عشتها حين كنت مراهقًا. كم كنت ساذجًا! لطالما أغضبت أمي المسكينة وانشغلت عنها في تلك الفترة بالهيام في عالم الحب ومذاكرة

دروس الفيزياء. عشت سجينَ عالمي الخاص لفترة طويلة من عمري ولا زلت أقبَعُ تحت أسره. ليتني قضيتُ المزيد من الوقت معها. ليتني تخليت عن أنانيتي لبعض الوقت. ما الفائدة من جَلدِ الذَّات ذاك؟ لقد ماتت أمي وانتهى الأمر والأدهى أني قتلتها! انتابتني رغبة في الصراخ علِّي أستيقظ من حلمي المزعج ذاك إلا أني لم أفعل. مزقت جميع أوراق مذكرتي ونثرتها حولي في جميع أرجاء الغرفة. ندمت على ذلك فيما بعد؛ فقد مزقت الشيء الوحيد الذي يمكن أن يحوي دليلَ إدانتي أو براءتي وستبقى الحقيقة محجوبة عنِّي إلى الأبد. لم يكن هذا عدلاً على الإطلاق! ما عساي أفعل الآن؟ استعدت بعض الذكريات وأخذت أتجرع مرارتها. يبدو أنني عشقت تعذيب نفسي بذكريات عفا عليها الزمن. ويبدو كذلك أني غفوت على أرضية المكان بينما أغرق في ذكرياتي الخاصة.

انتقلت بعد ذلك إلى مكان آخر وأخذت أنظر حولي باحثًا عن شخصٍ ما.. إنها ذات الحديقة الغناء. أنا أعرفها جيدًا بأشجارها العملاقة. كنت أعلم يقينًا أن الشخص الذي أريده موجودٌ في مكانٍ ما هنا. عمَّنْ أبحث يا ترى؟ استعرت نيران تلك الأسئلة لتلتهم خلايا دماغي شيئًا فشيئًا. إنها لا تكف عن مطاردتي أبدًا! لقد سئمت وجودها وأود لو أتخلص منها حتى وإن عنى ذلك فناء حياتي بأسْرِها. أريدها أن تصمت قليلاً.. قليلاً فحسب! أتمنى لو أحصل على بضع دقائق من الراحة، لست أطلب الكثير! إنه حُلمٌ صَغيرٌ، ويبدو أنه قد غدا مستحيلاً! تنقلت ببطءٍ بين الأشجار علِّي أجد ضالتي المنشودة. لم أجدها بعد. ترى هل ستتسنى لي رؤيتها مرة أخرى؟ يرفض عقلي أن يخبرني باسم الشخص الذي أبحث عنه وكأنما يأبى أن أتألم لأن هذا الشخص لم يعد موجودًا بالمرة. ربما يحاول حمايتي لمرة واحدة في حياته. أنا لا أثق به أبدًا، فكيف لي أن أحسن الظن به؟ سرت طويلاً في تلك الحديقة الواسعة على غير هدى. كيف لي أن أبحث عن شخص لا أعلم تماما من يكون؟ لست أدري لماذا ساقتني قدماي إلى تلك الحديقة مرة أخرى. لم أدرِ

كم مضى من الوقت منذ وصلت إلى هنا ولم ألقِ لهذه الفكرة بالاً قَط؛ فالدقائق لم يعد لها معنى أبدًا. ما معنى الوقت الذي أمضيه بعيدًا عن أحبابي؟ وفجأة وجدت ضالتي.. إنها هناك! جالسة على العشب الأخضر. أجل، إنها هي بلا أدنى شك! إنها أمي وهي لا تزال حية ترزق! هرعت إليها؛ فأنا لا أرغب في فقدانها مرة أخرى. لا شك أن ما عشته كان - لحسن الحظ- محض كابوس مزعج. أجل، لا شك أنه كذلك! انطلقت مسرعًا نحوها سالكًا أقصر السبل إلى أن ارتطمت بقوة بشيءٍ ما. إنه زجاج يفصلني عنها! لطالما حييت بعيدًا عنها ولن أغدو كذلك بعد الآن؛ فهي لا تزال على قيد الحياة ولا زالت الفرصة سانحة. جن جنوني وأخذت أقرع الزجاج بقوة بكلتا يدي؛ علها تسمعني. علها تنظر إليَّ لمرة واحدة بعد، علها تلوح إليَّ من بعيدٍ! تملَّكَني الذعر فقد خشيت أن أفقدها بعدما وجدتها. يا إلهي! أهذا ممكن حقًّا؟ نحيت تلك الفكرة جانبًا محاولاً طردها من رأسي؛ فهي تسبِّب لي ألمًا غير محتمل. أخذت أقرع الزجاج بقوة أكبر مناديًا عليها بأعلى صوت يمكنني إصداره:

"أمي.. هل تسمعينني؟ أمي، أجيبي أرجوك!"

إلا أنها لم تسمعني ولم تجب. صرخت ثانية مستنفدًا كل طاقتي؛ فلست مستعدًا لتضييع تلك الفرصة الذهبية التي قد لا تأتي ثانية. ما العمل؟ إنها لا تسمعني! بدأت أركل الزجاج بقدمي محاولاً تحطيمه. عليَّ الوصول إليها إن كانت لا تستطيع سماعي. ما شأن هذا الزجاج؟ لمَ أنا عاجز عن تحطيمه؟ إلى متى سأبقى معزولاً عن أمي؟ يا إلهي! لماذا لا ينكسر؟! أنا لا أفهم شيئًا! همت أمي بالرحيل في صمتٍ مولية ظهرها إياي. تمنيت لو تستدير فأرى وجهها للمرة الأخيرة إلا أن هذا لم يحدث أبدًا. لم أستطع اللحاق بها بسبب الزجاج العازل. ترى، هل كانت سرابًا؟ هل ماتت أمي بالفعل؟ والسؤال الأهم: هل قتلتها؟ ليتني أجد إجابة شافية! تمنيت ألا يبقى ما حدث سرًّا محجوبًا عني إلى الأبد. أتراه خيرًا لي ألا

أعرف الحقيقة؟ فإن تبدَّى لي أني قتلتها، فلن أسامح نفسي للأبد. ماذا سيحل بي حينها؟ هويت على أرضية الحديقة واستغرقت في نحيبٍ مستمرٍّ. لقد خارت قواي وتملكتني الأحزان. رحلت أمي بعيدًا تاركة إياي غارقًا في تكهناتي وآلامي الجمة، بل ربما رحلت إلى غير رجعة! أجل، إنها الحقيقة المُرَّة.. قد لا أراها ثانية!

***

"سليم هل تسمعني؟ إلى متى ستبقى غارقًا في أوهامك تلك التي عذَّبتك؟! دَع أحلام اليقظة التي تعطل حياتك وشأنها."

ما هذا؟ إنه صوتٌ مألوفٌ إلى حدٍّ كبيرٍ. لم أميز الصوت في البداية، ولكن اتضح لي فيما بعد أنه صوت الممرضة، فقلت:

"أوهام؟ وما عساي أفعل بشأنها؟"

ضحكت قليلاً ثم تابعت:

"دَعك منها.. لا تعرها اهتمامًا أبدًا! إنها تعشق تعذيبك، هل تعشق تعذيب نفسك أم ماذا؟!" اغتظت كثيرًا وقلت ممتعضًا:

"ما المضحك في الموضوع؟"

توقفت من فورها مدركة أنها جرحت مشاعري واعتذرت قائلة:

"حسنًا.. أنا آسفة. والآن أخبرني من فضلك، هل لي أن أسألك سؤالاً؟"

ترددت قليلاً ثم أومأت برأسي مشجِّعًا إياها على المضي قدمًا في الحديث فقالت:

"كيف تكيفت مع الحياة مع عقلك ذاك؟ إنه لأمرٍ مرعبٍ بحق أن يحظى أحدهم بعقل مثل عقلك"

صمت بعض الشيء ثم أجبت وقد أشحت بوجهي عنها كي لا ترى الدمع في عيني؛ فأنا أكره أن يشفق أحدهم علي.

"لم أتكيف أبدًا! هل أبدو لك كشخص استطاع التكيُّف؟"

ثم تابعت غاضبًا:

"ثم لماذا تصفين عقلي بأنه مكانٌ مرعبٌ؟ أتعتقدين أني مجنون؟"

أجابت بسرعة موقنة من أنها قد أثارت غضبي:

"أنا لم أقل ذلك.. كنت أتساءل فحسب عن كيفية تكيفك. هذا كل ما في الأمر. ثم لماذا..." قاطعتها في انفعالٍ قائلاً:

"قلت لك إني لم أتكيف! ثم هل دلفت إلى عقلي حتى تجزمي أنه مكان مرعب؟! أنت تعتقدين أن عقلي ليس جيدًا كعقولكم، أليس هذا ما قصدته؟"

أجابت محاولة تهدئتي:

"لا أبدًا، أنا لم أقصد ذلك! على كل حالٍ، أرجو المعذرة.. عذرًا لكوني أزعجتك"

وفي تلك اللحظة دلف الطبيب إلى الغرفة قائلاً بلهجة بدت ودية:

"كيف حالك يا بطل؟" أشحت بوجهي عنه وقلت متذمرًا:

"لست بطلاً! أنا لست سوى أحمق عذبه عقله!"

ابتسم الطبيب وقال:

"إذًا فقد اقتنعت أن عقلك يخدعك. يا له من خبرٍ جيدٍ!"

أعدت النظر في عينيه وقلت في حزم:

"لا! عقلي لا يخدعني أبدًا، أنا من يملك زمام الأمور وليس عقلي التافه!"

تنهد الطبيب وأومأ برأسه قائلاً:

"آمل ذلك يا سليم، وآمل ألا تكون تناقض نفسك."

تأففت مبديًا ضجري، وشرع الطبيب في إجراء بعضِ الفحوصات التي اعتاد أن يجريها عليَّ. سألته في تودُّد مصطنع:

"سيدي، ألم تسألني آنفًا عمَّا إذا كانت أمي لا تزال تزورني في المنام؟"

أجاب الطبيب دون أن يتوقف عن عمله للحظة:

"نعم، وقد غضبت حينها غضبًا عارمًا واتهمتنا بالتجسس عليك"

فقلت في تردُّد:

"سيدي.. أنا أعتقد بشدة أني قتلتها!"

توقف الطبيب عن عمله ونظر إليَّ وقد جحظت عيناه:

"ماذا تعني يا سليم؟"

فقلت:

"أعني ما سمعت.. لقد قتلتها."

قال بصوت لم تفارقه الدهشة:

"سليم.. أمك متوفاة منذ سبع سنين، وقد كنت حينها طفلاً صغيراً!"

جحظت عيناي حتى كادت تنخلع من مكانها وارتسم الذعر الشديد على وجهي. لم أرد تصديق ما قال، وتمنيت لو أصبت بالصمم قبل أن ينطق ذلك الثرثار جملته الأخيرة. قلت في إنكارٍ:

"أمي ماذا؟ ماذا قلت؟"

قالت الممرضة في استغراب واضح:

"الطبيب على حقٍّ يا سليم. لقد توفيت أمك منذ سبع سنين وقد كنت حينها طفلاً صغيراً فلا يمكن أن تكون قد قتلتها!"

أخذت أهز رأسي في غير تصديق وأرتجف ثم صرخت:

"لا! لم يحدث هذا قَطّ!"

استجديتهم أن يصمتوا فلم يفعلوا بل تمادوا أكثر وأكثر وأخذوا يضحكون مني. أخبروني فيما بعد أنهم لم يسخروا مني أبدًا ولم يعيدوا ما قالوه. إلا أني موقنٌ من أنهم كانوا يحاولون نفي التهمة عن أنفسهم فحسب. إنهم يهوون تعذيبي بتلك الأكاذيب. ثم سمعت الطبيب يقول: "اهدأ قليلاً يا سليم."

دفعته بعيدًا عني إذ كانت يداي حرتين حينها ثم غطيت أذني بكلتي يدي؛ فما زلت أسمع أصواتهم تدوِّي فيها. أمسك الطبيب بيدي ونزعهما عن أذني قائلاً:

"سليم، انظر إليَّ.. لا تخف، سيكون كل شيء على ما يرام."

صرخت بوجهه:

"أنت كاذب! أتعتقدون أني مغفل؟! هل أبدو كذلك من وجهة نظركم؟ أمي لم تمت أبدًا؛ فقد رأيتها خلف ذاك الزجاج! ولكن ماذا إن كنت قد قتلتها بالفعل؟ لم لا أذكر شيئًا؟ اصمتوا! اصمتوا أرجوكم! لماذا لا يكف زئير أفكاري عن الصراخ بأذني؟! صوت فوران ذلك البركان المستعر يصم الآذان! والحمم المنبعثة منه تلهب أعضائي وتحرقها. أجل، إنها تحترق! أنا متأكد من ذلك. ليت ذلك الصوت يصمت ولو لدقيقة واحدة."

أمرَ الطبيب الممرضة بإحضار حقنة ما وسرعان ما سرت المادة المهدئة في عروقي. آخر ما سمعته كان قول الطبيب بعدما وضع يده على رأسي:

"المسكين.. سيقتله دماغه!"

***

استيقظت فيما بعد لأجد الطبيب المكلَّف بعلاجي يحاور طبيبًا آخر خارج غرفتي. لم يكن الباب موصدًا ولذلك كنت قادرًا على رؤيتهما. كنت على يقين من أنهما يتحدثان عني رغم كوني عاجزًا عن سماع ما يقولان. حدسي الصادق يخبرني بذلك وأنا أثق به؛ فهو لا يخيب أبدًا. وجدت أن قيود يدي قد انحلت،

فشعرت بسعادة بالغة لكوني استعدت بعضًا من حريتي المسلوبة. حاولت النهوض فشعرت بدوَّار خفيف، لا شكَّ أنه نتج عن طول استلقائي على السرير. استغللت فرصة انشغال الطبيبين بالحديث إلى بعضهما البعض وغادرت الغرفة. لم ترني أي من الممرضات لحسن الحظ. دلفت بعد ذلك إلى الغرفة المجاورة، فوجدت امرأة عجوزًا مستلقية على السرير. كان وجهها شاحبًا ومألوفًا إلى حدٍّ كبيرٍ. أجل، إنها أمي! ثمة أجهزة كثيرة متصلة بجسدها النحيل، وكانت الأجهزة تصدر صفيراً متقطعًا. كانت عيناها مغمضتين. ترى، أهي نائمة؟ دنوت منها وأمسكت يدها فأفزعني كونها باردة للغاية. ترى ماذا حل بها؟ أنا لا أذكر شيئًا أبدًا! حاولت مناداتها علها تستيقظ إلا أن شيئًا لم يحدث. وفجأة أصدر أحد الأجهزة صفيراً مختلفًا، وهرع بعض الأطباء إلى داخل الغرفة. صرخت:

"ماذا بها؟"

إلا أن أحدًا لم يجبني. لم أدرِ ما الذي أتى بأمي إلى تلك المشفى، فأنا لا أذكر أنها كانت مريضة. ما الأمر إذًا؟ أسرع الأطباء ببدء الإنعاش القلبي الرئوي فأدركت أن الأمر يزداد سوءًا. قال أحدهم:

"إنها لا تستجيب! علاماتها الحيوية في تدهور مستمر. إننا نفقدها"

صرخت جزعًا:

"تفقدونها؟ ماذا تعنون بأنكم تفقدونها؟"

لم يعرني أحدهم اهتمامًا. ربما لا يسمعونني بل ربما لا يروننني بالأساس؛ فلم يأمرني أحدهم بمغادرة الغرفة مطلقًا. لم أستسلم وأخذت أستجديهم:

"أرجوكم أنقذوا أمي! أرجوكم أنقذوها؛ فأنا بحاجة إليها!"

لم يبالِ أيٌّ منهم بالرد عليَّ كما لو كنت غير موجود بالمرة. استمر الأطباء بإجراء

الإنعاش إلى أن غدا صفير أحد الأجهزة متصلاً لا ينقطع. لقد توقفوا إذ أيقنوا أنها فارقت الحياة. لحظة واحدة، هل قلت فارقت الحياة؟ نظرت إلى الساعة المعلقة على الحائط فوجدتها تشير إلى الرابعة والنصف مساء ثم أعدت النظر إلى أمي؛ فوجدت وجهها قد ازداد شحوبًا. لقد غدا جسدها رفاة سيواريها التراب عما قريب. ابتعدت عنها قليلاً ونظرت صوب المرآة الموجودة بالغرفة فهالني ما رأيت. لقد رأيت طفلاً في الحادية عشرة من عمره تقريبًا. تحسست وجهي غير مصدق لما أرى، ويبدو أنني فقدت وعيي بعدها؛ إذ وجدت نفسي مستلقيًا من جديدٍ على السرير الذي آواني منذ اللحظة التي دلفت فيها إلى ذلك المشفى. لا بُدَّ أن أحدًا ما حملني إلى هنا. نظرت حولي فوجدت الممرضة تحملق بي من جديد فقلت:

"ما الأمر؟ لماذا تنظرين إليَّ هكذا؟"

فأجابت:

"أحاول جاهدة أن أتبين ما تقول."

سألتها:

"ماذا تعنين؟ أنا لم أكن هنا أصلاً.. لقد كنت في الغرفة المجاورة ثم فقدت وعيي ويبدو أن أحدًا أعادني إلى غرفتي."

تعجبت الممرضة كثيراً وبدا ذلك جليًّا في تعابير وجهها وقالت:

"ماذا تقصد؟ أنت لم تغادر مكانك قط. لقد كنت تهذي بكلمات غير مفهومة طيلة الوقت وقد كنت أحاول تبين ما تقول"

نظرت إليها باستهجان فتابعت:

"إن لم تكن تصدقني فانظر إلى يديك، كيف لك أن تنهض وتلك القيود لا تزال تكبلك؟ لقد أعدناها حين أصبت بالهياج في المرة الماضية."

نظرت إلى حيث أشارت فوجدت القيود لا تزال في مكانها بالفعل ولم تنحل أبدًا كما اعتقدت. هذا غريب! كيف تسنى لي النهوض والذهاب إلى الغرفة المجاورة؟ تفتق ذهني عن الصورة التي رأيتها في المرآة فانقبض صدري بقوة. كيف لمثل هذا أن يحصل؟ ثمة شيء غير مفهوم.

***

كنت جالسًا على السرير وقد حلوا قيود يدي لأتناول فطوري بينما كانت الممرضة تراقبني كي لا أقوم بفعل متهوِّرٍ. وفوق ذلك كانوا يحرصون على ألا يكون هناك شيء في الغرفة يمكنني إيذاء نفسي مستخدما إياه. دخل الطبيب فوجد صينية الطعام لا تزال موضوعة أمامي ولم آكل منها أي شيء. فقال:

"ما الأمر يا سليم؟ لماذا لا تأكل؟"

أشحت بوجهي عنه إلا أنه تابع كلامه:

"ألم يعجبك الطعام؟ أترغب في أن نحضر لك شيئًا آخر؟ أم أن هناك ما يشغلك؟"

أجبت في حنقٍ:

"لا أريد تناول أي شيء."

صمت الطبيب قليلاً ثم سألني:

"ما الأمر يا سليم؟ أما زال موضوع أمك يشغلك؟"

تملكني الغضب وأطحت بصينية الطعام مستخدمًا كلتي يدي، فانسكب كل ما فيها على ثيابي وعلى السرير. صرخت قائلاً:

"لا شأن لك بأمي أيها الأخرق!"

نهضت الممرضة فزعة وأسرعت تنظِّف ما طال ثيابي من الطعام الساخن قبل أن يحرق جلدي. قال الطبيب محاولاً احتواء الموقف:

"حسنًا يا سليم، اهدأ قليلاً واسمعني"

قاطعته بحدة قائلاً:

"لن أسمع شيئًا من حديثك الفارغ!"

لم يلتفت لما قلت؛ فقد وضع يده على كتفي وتابع قائلاً:

"أمك كانت تحبك يا سليم، وأنت تحبها كذلك بلا أدنى شك. لا تدع ظنونك تودي بحياتك. لا تدع شعور الذنب يقتلك أو ينقلك إلى مستنقع البائسين. أنت فتى جيدٌ يا سليم. أعلم أنك تعيش حيرة كبيرة، وقد تعتقد غالبًا أني أهذي. وأعلم أنه من العسير عليك احتمال حياة مثل هذه، وأنه من الصعب جدًّا أن تحيا سجين دماغك، وأدرك جيدًا كم ترغب صدقًا بمغادرة هذا السجن القاسي. أعرف أن الحراسة مشددة وأن تلك الأصوات لا تنفك تعذبك وأنها تحتل جزءًا كبيرًا من كيانك. ولكن أتعرف لماذا لا تريد مغادرة عقلك؟ لأنها لن تجد مكانًا يأويها إن أنت طردتها! لا تصغ إليها يا سليم! إنها لا تحبك أبدًا.. إنها محض طفيليات تقتات على خلايا عقلك. ولكن لا تخف؛ فتلك الكائنات الهلامية أضعف مما تتصور. فلا تُعِرها اهتمامًا أبدًا. أقدر أن الأمر صعب للغاية؛ فأنت مصابٌ بأحد أعتى الأمراض النفسية التي عرفها التاريخ. أرجوك، لا تدع خيالاتك تنقلك إلى مكان لن تحبه أبدًا. ثق بنفسك وبقدرتك على التغلب على هذه الأصوات المزعجة"

استمعت إلى حديثه بكل حواسي ومشاعري وتغاضيت عن وصفه إياي بالمريض. أنا متيقن من أني لست مريضًا، إلا أني نحيت هذه الفكرة جانبًا وأصغيت لما قال. مسَّ كلامه أعماقي وطرق أبوابًا داخلي لم أجرؤ على طرقها من قبل. سمعت حينها صوت ذلك الشيطان يكاد يفجر رأسي:

"لا تصغَ إليه! إنه يخدعك! أنت من قتلت أمك!"

كرر الشيطان جملته مئات المرات وفي كل مرة تردد صداها في أذني مرات كثيرة. نظرت حولي فلم أجده في الغرفة. ماذا لو كان الطبيب على حق؟ ماذا لو كانت تلك الأصوات تخدعني وتهوى تعذيبي؟ ماذا لو كانت تقتات على ألمي؟ اغرورقت عيناي بالدموع وشعرت بها تنساب على وجنتي. لم أعبأ بمسحها سريعًا كما أفعل في العادة كي لا يشفق عليَّ أحدهم بل أتحت لبعض حمم البركان أن تسيل فقد آلمني كونها حبيسة داخلي وأصابني بالاختناق. غضب الشيطان من تعبيري عما يكنه صدري من مشاعر، مما أكد لي أنه محض طفيل يقتات على معاناتي. علمت بغضبه حين قال:

"أيها المثير للشفقة! ستندم على ما فعلت! لا تخبرني حينها أني لم أحذرك!"

ترى، هل غضبَ الشيطان من كوني اكتشفت حقيقته؟ أم أنه ثمة سبب آخر لغضبه؟ بكيت بشدة وشرعت في النحيب. علا صوت بكائي رغمًا عني، وصمت الطبيب ليتيح لي فرصة للتنفيس عما يختلج في صدري من مشاعر جمة. قلت بصوت متهدج:

"آسف.. آسف على الفوضى التي أحدثتها. آسف على كل المتاعب التي سببتها لكم"

قال الطبيب مطمئنًا إياي:

"لا عليك يا سليم.. لا عليك".

***

يمضي يومي مملاً إلى أبعد الحدود. أقضيه بين مشاهدة التلفاز والتمشي لبعض الوقت برفقة إحدى الممرضات. عالمي ضئيل ومحدود للغاية. أصبح كذلك حين تم إيداعي ذلك المشفى. لا أذكر من قام بإحضاري إلى هنا أصلاً، ولا أذكر الظروف

الغامضة التي سجنت بسببها في هذا المكان. لا أذكر شيئًا عنها أبدًا. كنت جالسًا على السرير ذات يوم وفجأة شعرت به يهوي وكأنما ابتلعته دوامة. أثمة ثقب أسود في هذه الغرفة؟! تبًا! ما الذي يجري هنا؟ استمر السرير في السقوط شيئًا فشيئًا بينما لا أزال مقيدًا له. لم تكن لدي أدنى فكرة عن متى ستكون نهاية تلك الدوامة وما إن كنت سأرتطم بقاع ذلك المحيط عما قريب. نظرت حولي حين أفقت من صدمتي فوجدت قضبانًا من حديد قد أحاطت بي. ما زلتُ مقيدًا للسرير. غاص القفص إلى أعماق البحر أكثر وأكثر. انتابني الهلع فحاولت التملص من قيودي بكل ما أملك من قوة. أدهشني كوني استطعت الخلاص منها أخيراً. علي الخروج من القفص الآن؛ فأنا أشعر بالاختناق. أنا أعرف السباحة قليلاً ولذا فقد سبحت حتى وصلت إلى باب القفص. حاولت فتحه ولكنه كان موصدًا بإحكام وعليه بعض الأقفال. حاولت البحث عن مفاتيحها في كل مكان فلم أجد شيئًا. كاد اليأس يتملكني إلا أنني خشيت أن أموت. تابعت البحث دون جدوى. يا إلهي! هل سأقضي نحبي الآن؟! لا، أنا لست مستعدا للموت! لا أريد أن ألقى الله على هذه الحال! كثيراً ما نعتني أصدقائي بضعف الإيمان، وكثيراً ما عللوا معاناتي بذلك. ماذا إن كانوا على حق؟ إلام سيؤول مصيري؟ ازداد هلعي واضطرابي وأخذت أتلفت حولي بجنون باحثًا عن المفاتيح في كل مكان. ترى، ماذا سيحلّ بي؟ بدأ الماء يتسرب إلى جوفي، وشعرت بملوحته في فمي. أحرق الماء المالح حلقي حين بلغه ما زاد من اختناقي. لم يكن هناك أحدٌ لينجدني فأيقنت أنها النهاية. ولكن فجأة تبدَّل كل ما حولي. اختفى الماء والقفص بأقفاله ووجدتني على السرير مقيدًا من جديد. كنت ألهث طالبًا بعض الهواء. حاولت تفسير ما يحدث لي، وكانت التبريرات بعيدة كل البعد عن كوني مريضًا. فإن كان حلم يقظة أو هلاوس فهي بالتأكيد نتجت عن تلك الأدوية التي يعطوني إياها. ثمة شعرة ما تفصل ما بين الحقيقة والخيال، فإن

عجز المرء يومًا عن تمييزها فإنه يصنف مجنونًا من قبل المجتمع، إلا أنني لست مجنونًا! قد تختلط عليَّ الأمور بعض الشيء، ولكنني لست بمجنون أبدًا! إنهم من جعلوني كذلك! أطلقوا كذبة وصدقوها والآن يريدون إرغامي على تصديقها، ولكن هيهات! لن أصدق أكاذيبهم الفارغة أبدًا. أنا من أقود عقلي وليس هو من يقودني حيث يشاء! ولكن، كيف لدوامة أن تبتلع سريري في هذه الغرفة؟ وكيف لها أن تستحيل محيطًا؟ يا إلهي! هل كنت أتخيل؟

***

دلف شخص أعرفه جيدًا إلى الغرفة. ورغم تدهور حال ذاكرتي هذه الأيام إلا أنني لا زلت أذكر اسمه. إنه صديقي منذ الصغر "هشام". كنا خير أصدقاء وعكفنا على ارتياد المدرسة ذاتها. جلس هشام إلى جوار سريري وقال:

"كيف حالك يا سليم؟"

لم أشأ أن أزعجه بشئوني البائسة فأجبته باقتضاب:

"أنا بخير."

دار بخلدي أن أسأله عمن أحضرني للمشفى وعن سبب ذلك وعن هدف قدومه لزيارتي ففعلت. تنهَّد هشام ثم قال:

"أبوك هو من أحضرك إلى هنا، ولا أدري بالضبط لمَ فعلَ ذلك إلا أني أعتقد أنه يخشى عليك بشكل مبالغ فيه. يخشى عليك حتى من نفسك. لست أجد تبريرًا لفعلته سوى ذلك. أما عن سبب زيارتي فأنت تعرفه جيدًا ولا يجدر بك أن تسألني هذا السؤال."

تساءلت في فضولٍ:

"هل وقعت في ورطة مجددًا؟"

ضحك هشام ملء شدقيه وقال:

"لم تتغير مطلقًا يا سليم. أليس من حقي أن آتي لأزور صديقي وأواسيه في محنته؟ أم أنك تنكر علي هذا الحق؟"

سارعت بالاعتذار قائلاً:

"آسف، لم أقصد ذلك."

ثم ناديت الممرضة وطلبت كوبين من الشاي. نظرت إليَّ باستغراب وتساءلت في حذرٍ: "كوبان؟" فقلت منزعجًا من ردة فعلها:

"أجل، كوبان! أهناك خطبٌ ما؟"

هزت رأسها بسرعة وقالت:

"لا، ولكن.. هل ستشرب الكوبين وحدك؟"

قلت لها مشيراً إلى هشام:

"ألا ترينه؟ أم أنك أصبت بالعمى؟ ثم ما شأنك بما إن..."

قاطعني هشام قائلاً:

"سليم.. أنا لا أحب الشاي."

أدهشني ما قال فسألته:

"حقًّا؟! منذ متى وأنت على هذه الحال؟ لقد كنت تشربه سابقًا، فماذا جرى لك؟"

فأجاب:

"لا شيء يا سليم.. كل ما في الأمر هو أني لم أعد أحب تناوُله."

قلت:

"إذا فأخبرها ما تريد.. أتريد قطعة حلوى أم شطيرة خبز؟ أم أنك تريد شيئًا آخر؟"

كانت الممرضة لا تزال ترمقني باستهجان ممتزج بحذرٍ وقال هشام:

"لا أريد شيئًا.. شكرًا لك."

عجبت لقوله ثم غزا التجهم وجهي وأشحت ببصري عنه. سألت الممرضة من جديدٍ:

"أتريد شيئًا يا سليم؟"

أجبت ممتعضًا:

"لا.. لا أريد أي شيء بعد الآن."

عادت تسأل:

"ألا تريد كوب الشاي؟"

اعتراني الغضب وصرخت بها في حنقٍ:

"قلت لا شيء! أعمياء وصماء أنت؟"

بدا الخجل جليًّا في وجه الممرضة كما بدا الارتباك واضحًا في ملامحها وغادرت الغرفة متمتمة بكلمات لم تلتقطها أذني كما لو كانت ترثي حالها. لم أشفق عليها أبدًا؛ فلا زال الغضب مسيطرًا عليَّ. قال هشام محاولاً تهدئتي:

"لا تحزن يا سليم، لقد أتيت لزيارتك فقط، ولم آتِ لتناوُل أي شيء"

لم أُعِره اهتمامًا ولم أتكلف عناء النظر في عينيه فقال:

"حسنًا يا صديقي، لقد اطمأننت عليك وحققت مرادي. يسرني كثيرًا كونك بخير. إلى اللقاء يا عزيزي."

لم أرد عليه؛ فقد كنت شارد الذهن. هل يمكن أن يكونوا مُحقين؟ أصحيح أن

عقلي يفتعل بعض المشاهد والشخصيات؟ ولكن.. هشام صديقي منذ ردح من الزمن أي قبل أن يزعموا أني مريض. إنه حقيقي! ولكن إن لم يكن قد جاء إلى هنا، فلماذا جلبه عقلي في هذا التوقيت تحديدًا؟ يا له من سؤال محير!

حل الليل. سار اليوم على وتيرة عادية باستثناء ما حدث هذا الصباح من لقائي بهشام. لم يكن بوسعي تجاهل ما وقع ولم أدعه يمر مرور الكرام. وبمجرد أن دخلت الممرضة لتحضر لي طعام العشاء، سألتها:

"أتذكرين ما حدث هذا الصباح؟"

فقالت ببرودٍ:

"ماذا حدث؟ أتقصد حين نعتني بالعمياء الصماء؟"

فقلت نافيًا:

"لا، لم أقصد ذلك. بل أعني ذلك الرجل الذي زارني. إنه صديقي هشام"

قالت بذات البرود:

"أي رجل؟ اطمئن، لم يزرك أحدٌ اليوم."

صعقت لما قالت ولزمت الصمت دقيقة ثم سألتها غير مصدق:

"أمتأكدة أنت؟"

أجابت بالبرود المستفز نفسه:

"أجل."

صمتت قليلاً ثم تابعت:

"والآن، أنت مدين لي باعتذار."

أشحت بوجهي عنها وقلت في ضيقٍ:

"لست مدينًا لأحد بشيء!"

فقالت:

"حسنًا.. احرص إذا على ألا تسكب الطعام على ثيابك كما في المرة الماضية."

قلت في امتعاضٍ:

"لست طفلاً حتى تقولي لي ذلك!"

قالت وقد أودعت أعصابها البراد:

"بالطبع لست طفلاً.. عن إذنك."

ابتسمت قاصدة استفزازي لدرجة أنه انتابتني رغبة قوية في أن أقذفها بصينية الطعام لتشج رأسها. تحاملت على نفسي ولزمت الهدوء؛ فلم يكن من الجيد بالنسبة لي أن أقتل شخصًا آخر.

***

ولج الطبيب غرفتي في اليوم التالي وقال مبتسمًا:

"سليم، ثَمة أحد جاء لرؤيتك"

تنهدت وهمست لنفسي:

"ليس مجددًا!"

قال الطبيب:

"هل قلت شيئًا يا سليم؟"

فأجبت:

"لا، أبدًا.. أعني.. من يكون ذلك الزائر؟"

كنت مستغربًا إذ لم يتكلف أحدٌ عناء عيادتي مذ دخلت المشفى باستثناء

هشام. لم يتظاهر أي من أصدقائي الآخرين أو أقاربي بالاهتمام. أجاب الطبيب:

"إنه والدك."

فقلت وقد تملكني الذهول:

"والدي؟!"

قال الطبيب:

"أجل يا سليم.. والدك. أخبرني أنه اشتاق إليك كثيراً؛ إذ لم يرك منذ وقت طويل، ولذلك جاء لزيارتك."

تأففت قليلاً؛ فقد كنت عاتبًا على والدي لانفصاله عن أمي ولهجره لنا ولتصرفات أخرى صدرت منه أثناء طفولتي ضايقتني ولم أصرح بها لأحد حتى الآن، بل أحملها بين طياتي في صمتٍ. تابع الطبيب غير مبالٍ بتأففي:

"هل أنت مستعد للقائه؟"

أومأت برأسي في ضجرٍ فقال الطبيب مشجعًا:

"هذا جيد."

ثم نادى الزائر:

"تفضل سيدي."

دخل أبي متسائلاً:

"هل تسمح لي بالدخول يا سليم؟"

أومأت برأسي ذات الإيماءة غير مبالٍ بالرد عليه ولا بالنظر في عينيه. جلس أبي إلى جواري وقال الطبيب مستأذنًا:

"حسنًا، سأدعكما بمفردكما لبعض الوقت."

كان أبي رجلاً في الستينيات من عمره. كان فارع الطول وضخم البنية رغم كبر سنه، إلا أني لم أرث عنه كثيراً من ذلك. كان مدمنًا لعمله وقد ورثت عنه ذلك بالتأكيد. قال أبي محاولاً دفعي للحديث:

"كيف حالك يا بني؟"

أجبت باقتضاب:

"بخير."

لم يستسلم ولم يردعه جفائي وفظاظتي عن الاستمرار في الحديث وقال:

"سليم، لدي أخبار جيدة.. لقد اجتزت امتحانات هذا العام بنجاح يا عزيزي، هنيئًا لك!"

لم يتغير وجهي ولم أفتعل أية ابتسامة. بالتأكيد نجحت بالكاد. لقد اعتدت على أن أكون متفوقًا، أما الآن فبالكاد أجتاز الامتحان بفضل درجات الرأفة. قال أبي متفاجئًا من ردة فعلي الباردة:

"ما بك؟ ألست سعيدًا؟"

قلت في نفسي:

"لا، لست سعيدًا البتة."

ولكن كان ثمة أمر آخر يشغل تفكيري: كيف سأخبره أني قد قتلت والدتي؟ ولكن.. أين المشكلة في ذلك إن كان قد هجرنا بالأساس ليتزوج من أخرى؟ أمسك والدي بيدي فانتزعني من تفكيري. أسرعت بمحاولة إفلاتها من قبضته. أدرك والدي هذا الأمر فتركها من فوره وقال بلهجة مرحة:

"انظر، لقد أحضرت لك الحلوى التي تحبها كي نحتفل.. هيَّا، تناولها يا صغيري"

قال ذلك وهم بإخراج الحلوى التي اشتراها من أجلي فأوقفته قائلاً في عنفٍ:

"لم أعد طفلاً لأشتهي الحلوى ولا لتناديني بصغيرك!"

أصابه الخجل وأسرع يقول معتذرًا:

"آسف يا سليم، لم أقصد ذلك أبدًا."

ثم وضع الحلوى إلى جواري قائلاً:

"حسنًا، سأتركها لك هنا؛ لتأكلها فيما بعد. وسأترك لك الحلوى خاصتي أيضًا؛ فأنا لا أريد أن يرتفع منسوب السكر في دمي."

أخبرني حدس ما بداخلي أنه أراد أن يجعلني أتناول الحلوى خاصته حتى يسعدني وحتى يتسنى لي تذوُّق طَعم النجاح، إلا أنه كان هناك صوت أقوى من حدسي السابق يخبرني بأنه لم يتركها سوى ليتحداني لأني رفضت أن أرضخ لطلبه بتناولها، وأنه ما زال يعدني طفلاً صغيرًا. أغمضت عيني ونفثت هواء ساخنًا من فمي مبديًا ضيقي. فقال أبي:

"ما بكَ يا بُني؟ ألستَ سعيدًا بقدومي لرؤيتك؟"

نظرت في عينيه أخيرًا وقلت غاضبًا:

"لا! أنا غاضب منك لأنك تركتنا ورحلت؛ لتتزوج بامرأة أخرى!"

كنت أغلي من فرط الغضب وقد لاحظ والدي ذلك فقال:

"حسنًا يا سليم، يبدو أن زيارتي قد أزعجتك كثيرًا. سأرحل إذًا وأرجو أن تقبل اعتذاري فما كنت أقصد إزعاجك."

همَّ بالرحيل فتذكرت ما كان عليَّ الاعتراف به وصرخت:

"توقف! ثمة أمر عليَّ إخبارك به"

تساءل مستغربًا:

"وما هو هذا الأمر؟"

ترددت كثيراً ثم قلت:

"أمي..."

فقال:

"ما شأنها؟"

قلت:

"لقد.. لقد قتلتها!"

صعق أبي وجحظت عيناه ثم قال:

"ماذا؟.. ماذا تقول يا سليم؟!"

فقلت:

"إنها الحقيقة يا أبي، أنا من قتلت أمي! قتلتها في الغابة بين الأشجار، ثم حملت جثتها إلى كوخ خشبي."

فقال وقد بدا على وجهه القلق:

"أتمزح يا سليم؟"

قلت ممتعضًا:

"هل أبدو كذلك؟"

قال:

"ولكن هذا غير معقول على الإطلاق! سليم، لقد ماتت أمك حين كنت في الحادية عشرة من عمرك من جراء إصابتها بالسرطان. لا يمكن أبدًا أن تكون قد قتلتها!"

صرخت والدم يغلي في عروقي:

"كفى! أنتم لا تعرفون شيئًا! لقد طعنتها بسكين في الغابة وحملتها إلى ذلك

الكوخ الخشبي المهترئ، وقد لطخت دماؤها ثيابي! أجل، هذا ما حدث! لمَ لا تصدقون؟!"

هتف بي والدي:

"سليم! هل جننت؟!"

ازداد غضبي وعلا صوتي أكثر بينما أوشكت على الانهيار التام:

"أنا لست مجنونًا! لماذا تزعمون ذلك دائمًا؟ أنت من جلبتني إلى هنا، إنها غلطتك! أنت من سجنتني في هذا المكان المثير للاشمئزاز.. أنا أكرهك! أكرهك!"

ويبدو أن الطبيب والممرضة قد سمعا صوتي، وتجمهر آخرون خارج الغرفة ليشهدوا ما يحصل. هرع الطبيب إلى الداخل موجهًا سؤاله لوالدي:

"ما الذي حدث؟"

قال أبي وقد بدا الارتباك جليًا في صوته:

"لا أدري.. إنه يزعم أنه قتل أمه. لا أعلم من أين أتى بهذا الكلام الغريب!"

لا شكَّ أن الطبيب قد أدرك من فوره ما حصل. أما أنا فانطلقت أهاجم والدي كالثور الهائج:

"هيَّا اغرب عن وجهي! لا أرغب في رؤيتك ثانية! وخُذ تلك الحلوى التي أحضرتها؛ فلم أعد بحاجة إليها! ولست بحاجة لشفقتك كذلك!" ثم لم أجد حرجًا في توجيه كلامي للممرضة والطبيب أيضًا:

"ولا أريد شفقتكم أيضًا! أنتم المثيرون للشفقة! مَن تظنون أنفسكم؟ ابتعدوا عني جميعًا!"

أمر الطبيب بإحضار حقنة مهدئة للمرة المائة. كنت في انهيار تام وكنت أنتحب وأنشج بقوة قائلاً:

"لا تعطوني شيئًا! لمَ تتطلعون إليَّ هكذا؟ أنا أكره نظراتكم تلك!"

استمر هذا الوضع إلى أن أعطاني الطبيب الحقنة المهدئة وكان آخر ما سمعته هو سؤالُ والدي:

"أيها الطبيب، أرجوك أخبرني ما بال سليم؟"

وإجابة الطبيب:

"لا تقلق، سيكون ذلك البطل على ما يرام."

***

للنفس البشرية آفاق ووديان لا يعلم عنها شيئًا إلا من جابها وخاض غمارها. كيف ستكون حالك إن فقدت التمييز بين الواقع والخيال؟ يا له من أمر مرير! إن ما تشاهده وتسمعه ويزعمون أنه محض هلاوس صنعها عقلك يعد بالنسبة لك واقعا متجسدا لا مراء فيه. لا تدري إن كان عليك أن تصدقهم أم تصدق نفسك.

استيقظت لأجد الطبيب جالسًا إلى جواري يراقبني في صمتٍ. بدا وكأنما ينتظر استيقاظي. كنت أشعر بصداعٍ شديدٍ في مقدمة رأسي، سألته:

"ماذا حلَّ بي؟ وأين أبي؟ هل رحل؟"

قال الطبيب بنبرة هادئة:

"حمدًا لله على سلامتك يا سليم. لا عليك مما حدث. المهم أنك بخير الآن."

قلت في ألم:

"أنا أشعر بصداع شديد."

قال الطبيب:

"حسنًا، سآمر الممرضة بأن تجلب لك مسكنًا للألم."

أعدت سؤالي اعتقادًا مني بأنه لم ينتبه له:

"أين أبي؟ أنا لا أراه هنا."

تنهد الطبيب وقال:

"لقد رحلَ يا سليم.. قال إنه قد يزورك مرة أخرى."

نظرت إلى جواري فوجدت كيس الحلوى لا يزال هناك؛ تلك الخاصة بي والأخرى التي زعم أبي أنه جلبها لنفسه. بكيت وقد أدركت حقيقة أنه ما جلبها إلا ليشاركني فرحتي بالنجاح وليس لأنه يشتهيها، إلا أنني لم أبدِ أيَّ سعادة بالخبر وحرمته لذة الاحتفال معي. وفوق كل ذلك، لم أظهر أدنى ترحيب بقدومه لزيارتي رغم كونه قد يكون الوحيد الذي تجرَّأ على فعل ذلك إن لم يكن هشام قد أتى حقًّا. لم يخش أن أعاتبه بل كان مستعدًا لسماع أي شيء. سألني الطبيب وقد لاحظ انهمار عبراتي:

"لماذا تبكي يا سليم؟"

فقلت بصوت متهدج:

"متى سيعود؟"

قال:

"لا أدري.. ولكن من المؤكد أنه سيعود عما قريب؛ فهو لن يتخلى عن ولده."

دلف شخصٌ ما في تلك اللحظة إلى الغرفة.. شخص أعرفه جيدًا. نظرت تجاهه فنظر الطبيب بحركة تلقائية إلى حيث أنظر وقال:

"إلامَ تنظر يا سليم؟"

لم أُجِبه وإنما تابعت النظر إلى الوافد. إنه الشيطان نفسه ذو الابتسامة الصفراء الماكرة. قال الطبيب:

"سليم، أتسمعني؟"

إلا أني تجاهلته تمامًا وسألت الشيطان:

"كيف دخلت إلى هنا؟"

ثم أدركت أن سؤالي الساذج هو سؤالٌ بلا معنى؛ فقد دخل الغرفة كما دخل في المرات السابقة. ظلَّ محتفظًا بابتسامته المعتادة وقال:

"هذا لا يعنيك"

قلت في وجلٍ:

"ماذا تريد منِّي؟"

قال الطبيب:

"إلى مَنْ تتحدث يا سليم؟ هلا أخبرتني من ترى؟"

قال الشيطان:

"لا تصغَ إليه.. أنا من يجب عليك أن تصغي إليه."

سألته وقد ازداد خوفي:

"ولماذا؟"

فقال:

"ألن تسلم نفسك؟ لقد قتلت أمك وعليك أن تلقى عقابك."

قلت:

"لقد سبق واعترفت لهم بأني من قتلها"

هزَّ رأسه وقال:

"هذا لا يكفي.. عليك أن تسلِّم نفسك للشرطة."

قلت متعجبًا:

"الشرطة؟"

سألني الطبيب في قلقٍ واضحٍ:

"سليم، مَن هذا الذي تحاوره؟!"

التفت إليه أخيرًا وقلت:

"ألا تراه؟ إنه هناك.. ذلك الشيطان."

سألني الطبيب وقد زوى ما بين حاجبيه:

"الشيطان؟ ماذا تعني؟"

فقلت:

"ذاك الذي أخبرني بأني قد قتلت أمي."

قال الطبيب وقد ارتسمت علامات الذعر على وجهه:

"ماذا؟!"

صرخ الشيطان:

"دَعك منه! ألم آمرك بألا تستمع إليه؟ ما كان عليك أن تخبره بحقيقة أمري! نفِّذ ما أطلبه منك دون نقاش! إن لم تسلِّم نفسك للشرطة فعليك أن تتكفل بمعاقبتها بنفسك."

سألت في عدم فَهمٍ:

"ماذا تعني؟"

قال الشيطان في حزمٍ:

"اقتل نفسك!"

جحظت عيناي ولم أستطع التفوه بحرف. قال الطبيب:

"سليم، أما زلت تسمع صوته؟ لا تصدقه؛ فهو يحاول خداعك!"

قال الشيطان:

"لا تلتفت لما يقول ذلك المحتال! أنت مذنبٌ وتستحق العقاب!"

قال الطبيب:

"أخبرني يا سليم.. ما الذي يطلبه منك؟"

ترددت كثيراً وتلعثمت بينما قلت:

"إنه.. إنه..."

قاطعني الشيطان مهددًا:

"لا تخبره سوى بما آمرك أن تخبره! إن خالفت أمري فسأقتلك! لن يسعك احتمال غضبي؛ فأنت أضعف من أن تفعل ذلك أيها الأهوج!"

فقلت:

"لمَ لا تطلب منه أنت إذًا أن يسلمني للشرطة؟"

قال:

"لا، أنت من عليه طلب ذلك منه؛ فأنت من ارتكب تلك الجريمة النكراء! هيَّا، افعل!"

ترددت بعض الشيء فقال الشيطان:

"لقد بدأ صبري ينفد يا سليم!"

سألني الطبيب:

"ما الأمر يا سليم؟"

فقلت باكيًا وقد بدأ جسدي يرتجف بقوة:

"لا أستطيع.. لا أستطيع!"

قال الشيطان:

"حسنًا يا سليم، سأمهلك بعض الوقت ولكن احذر.. إن نفد صبري فسأقتلك من فوري بدمٍ باردٍ! وإن ارتكبت حماقة ما وأخبرته بالمزيد عني فسأقتص منك دونما تردد! احذر أن تخالف أمري! إلى اللقاء أيها الأخرق!"

ثم غادر الشيطان الغرفة ونظرت إلى الطبيب فوجدته يرمقني بقلق بالغ ثم قال:

"هل أنت على ما يرام؟"

وددت لو أجيبه بِكلَّا، لست على ما يرام أبدًا! إلا أنني أجبته:

"أجل، أنا بخير حال."

تصنعت الابتسامة؛ فلم أشأ أن يشك في أمري. خشيت أن ينفذ الشيطان وعيده.. كان عليَّ إخباره بضرورة تسليمي لرجال الشرطة إلا أني لم أدرِ كيف أفعل ذلك ولم أكن متأكدًا مما إذا كنت مستعدًا له الآن. نظر الطبيب إليَّ وكأنه لم يصدق ما قلت وقال:

"لا تخش شيئًا يا سليم.. أنت في أمانٍ ولن يجرؤ أحد على المساس بك ما دمت هنا. والآن أخبرني بما قاله لك ذلك الشيطان."

قلت بسرعة:

"لا شيء.. لا شيء مهم على الإطلاق.. صدقني، أنا لا أكذب."

فقال:

"أأنت متأكد؟"

قلت:

"نعم"

تنهد وأومأ برأسه قائلاً:

"حسنًا يا سليم، ولكن إن كان هنالك ما يزعجك فلا تتردد في إخباري علّي أستطيع مساعدتك"

قلت مبتسمًا:

"أجل، بالتأكيد."

سألني:

"أثمة ما تريد إخباري به الآن؟"

فأجبته:

"لا أبدًا.. شكرًا لك. أريد أن أستريح فحسب."

أومأ الطبيب برأسه مجدَّدًا وأمر الممرضة بالمكوث معي ثم غادر الغرفة تاركًا إياي غارقًا في أفكاري. تذكرت أن الطبيب قد انتحل شخصية الشيطان في مرة سابقة.. أيمكن أن يكون الاثنان وجهين لعملة واحدة؟ كيف يتواجدان في الوقت نفسه مع بعضهما البعض إن كانا كذلك؟ هذا غير معقول أبدًا. ولكن لمَ لا؟ لا شيء منطقي هنا أصلاً! أيمكن أن يكون ذلك الطبيب يخدعني؟ إنه لا يبدو كذلك بل إنه يتصرف بلطفٍ. لقد عرضَ مساعدتي ولذا لا يمكن أن يكون مخادعًا. اختلطت عليَّ الأمور كثيراً فلم أعد أميز الحقيقة. أدركت أني بصدد مجابهة وحوش حقيقية.. إنها أفكاري!

يبدو أنني استغرقت في النوم لبعض الوقت ثم نهضت فزعًا على إثر حلمٍ مزعجٍ. قامت الممرضة باستدعاء الطبيب؛ إذ خشيت أن يصيبني انهيار ثانٍ. جاء الطبيب بعد وقت وجيز وسألني:

"ما الأمر يا سليم؟ هل رأيت أمك ثانية؟"

هززت رأسي نافيًا، فقال:

"حسنًا، ماذا رأيت إذًا؟"

لم أجبه؛ فقد أخرس الخوف لساني. تابع الطبيب:

"اهدأ إذًا وأخبرني من فضلك.. هل يهددك ذلك الشيطان؟"

لم أُجِب سؤاله وإنما سألته:

"إلى متى سيستمر هذا الوضع؟"

فأجاب:

"لا أحد يعلم يا سليم. ولكن اعلم أن الحياة لا تستمر على المنوال نفسه"

ظللت صامتًا لبعض الوقت أفكر فيما قاله. أيمكن أن يتغير شيء ما للأفضل؟ ثم قال الطبيب قاطعًا صمتي:

"ثق بي، سيتغير كل شيء عما قريب. سيتحسن الوضع ويصبح أفضل بكثير. سينحسر الموج الهادر وستغدو الحياة أهدأ."

ابتسمت ابتسامة أمل ثم سارعت في إخفائها فقد اعتقدت أنها ليست من حقي. أجل، لقد أقنعني عقلي أني لا أستحق شيئًا سوى الألم، كما خشيت أن يكون الطبيب مخطئًا. لاحظ الطبيب سرعة تجهمي فقال:

"ما الأمر؟ هل أنت بخير؟"

لم أقل شيئًا وإنما أومأت برأسي بينما تجمعت الدموع في عيني استعدادًا للانهمار. قال الطبيب:

"صدِّقني يا سليم، لن تدوم هذه الحال طويلاً؛ فدوامها من المحال."

أومأت برأسي ثانية بينما انسابت دموعي التي تراكمت في مقلتي لدرجة عجزت معها عن حبسها لفترة أطول. قال الطبيب محاولاً تحفيزي للكلام:

"والآن، ألن تخبرني ما بكَ؟"

أخذت أبكي بعنفٍ أكبر. ربَّت الطبيب على كتفي قائلاً:

"لا تحزن يا سليم. يجدر بك أن تكون فخورًا بنفسك"

فسألته:

"ولِمَ؟"

قال:

"لأنك ما زلت تصارع جحافل الأفكار التي تغزو عقلك ولم تستسلم بعد. أنت بطلٌ حقيقيٌّ!" ودَدتُ لو أستطيع تصديقَ كلامه؛ علَّ ذلك يفلح في ترميم صورتي الذهنية المشوهة عن نفسي. علِّي أتعلم كيف أحبها بعض الشيء. غادر الطبيب الغرفة بعد جملته الأخيرة وقد كادت ملامحي تذوب تحت وطأة الدموع.

***

في اليوم التالي، جلست لأتناول طعام الفطور. لا أنكر أني تحسنت بعض الشيء؛ فقد تحسن مزاجي قليلاً وتحسنت شهيتي للطعام. دلف "هشام" إلى الغرفة وجلس على الكرسي المجاور لسريري. نظرت إليه في حذرٍ ثم أشرت إلى الكرسي وسألت الممرضة:

"هل ثمة أحد جالس هناك؟"

لم تكترث بالرد على سؤالي وإنما تنهدت وقالت:

"ها نحن نبدأ من جديد."

أعدت سؤالي راجيًا إياها أن تعطيني إجابة واضحة:

"أرجوك أخبريني، هل من أحد يجلس على هذا الكرسي؟"

تنهدت من جديد وقالت:

"لا، لا أحد."

نظرت إلى حيث كان يجلس هشام فوجدته لا يزال جالسًا مكانه فسألتها:

"هل أنت متأكدة؟"

قالت:

"أجل."

أردت تبين حقيقة الأمر ولم يكن هناك سوى طريقة واحدة لمعرفتها. عرضت على هشام تناول الطعام معي فرفض متعللاً بأنه ليس جائعًا. لم أستسلم وناولته شطيرة فأبى أن يأخذها مكررًا حجته الفارغة. حسنًا! لا بُدَّ أنه غير موجود وأنه يخشى أن يمسك بشيء كي لا يفتضح أمره بسقوط ذلك الشيء أرضًا. حاولت تجاهله بما أنه ليس هنا بالأساس. سألني عن حالي وعن كيف أصبحت فلم أُعِره اهتمامًا بل أشحت بوجهي عنه ولم أردّ. تابع أسئلته عما إن كان هناك أحد يزورني في المشفى وعما إذا كنت آكل جيدًا وعن معاملة الأطباء لي وغيرها من الأسئلة التي لم أجب على أيٍّ منها. ثم تحدث لبعض الوقت عن أحوال الطقس وعن كم هو حار هذه الأيام فلم أشاركه الحديث أبدًا. وعلاوة على ذلك، فقد أخذت أدندن بعض الألحان بصوتٍ مرتفع حرصت على أن يسمعه ليعلم بتجاهلي له ولحديثه. صمت لبرهة ثم قال:

"سليم، أنت مثيرٌ للشفقة!"

وكأنما علمَ بما يمكن أن يخرجني عن صمتي وقد أدرك غايته؛ فلم أستطع تجاهل هذه العبارة للأسف الشديد ونظرت نحوه بحدة وتحفُّز. سألته:

"لماذا تقول ذلك؟" فأجاب:

"لأنك مستسلم لمرضك!"

كنت قد تصالحت مع فكرة أني قد أكون مريضًا، إلا أني لم أقبل اتهامه لي بالاستسلام؛ فأنا لم أستسلم أبدًا. تابع هشام:

"انظر إلى نفسك.. لقد جاوزت الحثالة سوءا! انتفت منك الصفات البشرية وصرت أقرب للحيوانات في الرضوخ والانصياع!"

انتابني غضب شديد وصرخت به:

"غادر من فورك؛ فلست بحاجة لسليط لسان مثلك ليفسد عليَّ يومي!"

قال:

"حسنًا يا سليم، سأغادر ولكن اعلم أنه لا يشرفني أبدًا أن أكون صديقًا لك! أنت عبء ثقيل على من حولك يودون لو يتخلصون منه."

صعقت لما قال وكأنما مست كلماته اعتقادًا دفينًا داخلي فساعدته على الصعود إلى السطح. كان ذلك الاعتقاد كفيلاً بتعذيبي طيلة الأيام التالية لمجيء هشام المشكوك فيه؛ فقد كان بداخلي يقين لا يساوره شك بأني عبء على غيري، ولطالما أزعجني ذلك اليقين ووددت لو أخلصهم من هذا الحمل المضني. ذهبت نفسي حسرات وكدت أبكي. قلت له بصوت منخفض:

"لا، هذا ليس صحيحًا" إلا أني كنت أعتقد أن ما قاله صائب تمامًا ولا تشوبه شائبة.

قال هشام متحديًا إياي:

"بل صحيح! أنت عالة على أسرتك وأصدقائك والأطباء وكل من عرفك!"

طلبت منه الرحيل لأني سئمت حديثه المؤلم فامتثل لأمري؛ إذ اطمأن إلى أن

أفكاري عن نفسي ستتكفل بتعذيبي بدلاً عنه. تركني هشام وقد تفشت في جوفي مشاعر مؤلمة سببها خذلان نفسي ومن حولي وكوني أمثل ثقلاً يرغبون في الخلاص منه. اعترتني رغبة جامحة في أن أخلصهم من هذا العبء الثقيل؛ فقد يكون هذا هو الشيء الوحيد الصائب الذي أفعله في حياتي.

***

وعلى عكس ما توقعت فقد تحسنت كثيرًا في الأيام التي أعقبت زيارة هشام. لم يعد ذلك الشيطان يزورني فظننت أنه قد نسي وعيده. لم يعودوا يضعون القيود في يدي فغدوت أكثر سعادة وحرية. صرت أتنزه لفترة أطول في حديقة المشفى وأمارس بعض الرياضة. أدركت حينها معنى نعمة الحرية وشعرت بأن الحياة قد دبت في جسدي من جديد بعدما كادت روحه تفارقه بينما لا يزال على قيد الحياة. شعرت بأن الطبيب كان سعيدًا برؤيتي أتحسن وبأنه كان فخورًا بما وصلت إليه وقد أخبرني بذلك بالفعل إلا أني حين طلبت منه أن أغادر المشفى طلبَ منِّي برفقٍ أن أنتظر قليلاً. نسيتُ أمرَ المنظمة السرية التي اعتقدت سابقًا أنهم ينتمون إليها. لقد ظننت سالفًا أنهم يعدونني محض فأر تجارب، وكنت عازمًا على مقاضاتهم بمجرد استطاعتي الإفلات من قبضتهم إلا أنني عدلت عن ظنوني تلك وبالتالي عن رغبتي السالف ذِكرها. انتظم نومي وغادرته الكوابيس، وكذلك سكن جأشي واطمأنت نفسي بعض الشيء. أنا ممتن كثيرًا لتحسُّني، وممتن لمن ساعدوني لأصل إلى هذه الحال؛ فلولاهم لغدوت مشردًا مجنونًا يهيم على وجهه في الطرقات. عدت إلى غرفتي ذات يوم وقفزت إلى السرير في مرحٍ. كنت أشعر بنشوة غامرة وكأنما أشاهد الحياة من خلال منظار وردي العدسات. لا أدري كيف تبدلت حالي بهذا الشكل. ربما كان الطبيب محقًّا فيما قال في نهاية المطاف.

طرق أحدهم الباب فهتفت:

"تفضل"

وانتظرت دخوله في ترقُّبٍ. رجوت أن يكون شخصًا حقيقيًّا هذه المرة. دخل الطبيب إلى الغرفة وسألني:

"كيف تشعر يا سليم؟"

فأجبت:

"أنا بخيرٍ حالٍ.. شكرًا لك."

فقال:

"أنا سعيد جدًّا بسماع ذلك. اسمعني، ثمة شيء عليَّ إخبارك به."

أنصت لما يقول باهتمام فتابع:

"والدك..."

سألته فزعًا:

"ما شأنه؟ هل أصابه مكروه؟!"

هز رأسه نافيًا وقال:

"لا، أبدًا.. وإنما يريد إخراجك من المشفى."

ابتهجت بداية بما سمعت ثم قال الطبيب:

"طلبَ والدك ذلك على مسؤوليته الخاصة. سيكون الوضع صعبًا عليك في البداية إلا أني واثق من أنك ستعتاده مع مضي الوقت، وسيمكنك حينها تجاوُز ما يواجهك من صعوبات."

سألته قلقًا:

"صعوبات؟"

قال:

"أجل يا سليم، الفترة التي تعقب الخروج من المشفى تكون صعبة بعض الشيء، ولكن تذكَّر ما قلته لك آنفًا: الحال لا تدوم على وتيرة واحدة."

أومأت برأسي وقال بدوره:

"اهتم بنفسك."

حاولت طمأنته قائلاً:

"سأفعل"

ابتسم الطبيب وربت على كتفي ثم غادر الغرفة. لا أعلم لماذا بدا الطبيب حزينًا وقلقًا للغاية رغم أنه يجدر به أن يكون سعيدًا لتماثُلي للشفاء. بدأت أحزم أمتعتي استعدادًا لمغادرة المشفى. كم كانت الفترة التي قضيتها بين جدران تلك المشفى صعبة ومرعبة! أنا ممتن لانتهائها أخيرًا. انتهيت من جمع أغراضي في الحقيبة، وذهبت لأودع الطبيب؛ فأنا لا أعلم إن كانت ستتسنى لي رؤيته ثانية أم لا. قال الطبيب:

"مع السلامة أيها البطل."

سألته:

"ألن أراك ثانية؟"

فأجاب:

"لقد وعدني والدك بأنه سيجلبك لرؤيتي من وقتٍ لآخر للمتابعة، وأظنه سيفي بوعده. احرص عل تناول أدويتك بانتظام؛ كي لا تتعرض لانتكاسة فيحدث ما لا يحمد عقباه."

أومأت برأسي ثم قلت وكأنما تذكرت شيئًا هامًا:

"والشيطان؟"

فقال:

"ماذا عنه؟ أما زال يزورك؟"

قلت:

"لا، ولكن ماذا سأفعل بشأنه إن أتاني ثانية؟"

سألني الطبيب:

"ما الذي يقلقك بشأنه؟"

لم أشأ أن أخبره الحقيقة كاملة بل قلت:

"لا شيء، أنا لا أحبه فحسب."

فقال:

"لا تقلق.. ستغدو قادرًا على مجابهته إن ظهر ثانية. إنه أجبن من أن يهزمك يا سليم، وأنت أقوى من أن تستسلم له."

ابتسمت ولوحت له بيدي استعدادًا للمغادرة؛ فأبي ينتظرني في الطابق السفلي. قال في ودٍّ:

"لا تنسَ أن تهتم بنفسك."

استدرت وأسرعت إلى حيث كان أبي ينتظرني. رآني قادمًا من بعيدٍ فلوَّح لي بحماسٍ وفعلت الشيء ذاته. وحين وصلت إليه ارتميت بين أحضانه، ثم وضع يده على كتفي وخرجنا من ذلك المكان. اعتقدت حينها أني بذلك أعلنت انتصاري على ذلك السجن.

***

عشت بعد ذلك أيامًا في كنف والدي. كانت الأمور تمضي بسلاسة في البداية على عكس ما أخبرني به الطبيب. توقفت عن تناول أدويتي تمامًا بعد فترة من الزمن متجاهلاً نصيحة الطبيب؛ فقد اعتقدت أني لم أعد بحاجة إليها. لم يزرني الشيطان ولو لمرة واحدة منذ وصلت إلى هذا المنزل. كنت بالفعل في خير حال. كان الوضع وكأنما أفقت لتوي من كابوس مزعج. كنت أعيش أسعد أيام حياتي بلا مبالغة. لم يشك أحد في تناولي الأدوية بانتظام؛ فقد كانت حالي على أتم ما يرام. خالفت نصيحة الطبيب غير عابئ بإمكانية حدوث ما لا يحمد عقباه. وبعد أيام قلائل، ساء الوضع بعض الشيء؛ فقد أضحيت أرى خيالات أشخاص تمر أمامي بسرعة وحين كنت أسأل والدي عنهم كان يخبرني بأنه لم يرَ شيئًا مماثلاً. كنت أرجع ذلك لضعف تركيزه وليس لإيقافي الدواء؛ فأنا أشعر أني بخير وأنه ليس ثمة شيء غير عادي على الإطلاق. لم أكن أعرف ماهية تلك الخيالات السوداء.. قد تكون للشيطان أو قد تكون لغيره. أردت أن أعرف ما إن كان الشيطان قد عاد لزيارتي؛ فقد كنت أخشى تنفيذه لوعيده. بذلت في محاولة تبين حقيقة تلك الخيالات جهودًا مضنية، إلا أن جهودي كلها ذهبت سدى. لم أذهب لجلسات المتابعة سوى لمرة واحدة قبل انتكاستي تلك، ولم يلحظ الطبيب شيئًا غريبًا أبدًا. أجل، لقد كانت تلك انتكاسة بالفعل!

وذات يوم، أتى أحد أصدقائي لزيارتنا.. إنه هشام! عجبت كثيرًا لرؤيته إلا أن كون أبي يراه جعلني موقنًا من وجوده بيننا ومن أنني لست أتخيله من تلقاء نفسي. قال هشام:

"كيف حالك يا سليم؟"

لم أجبه؛ فقد كنت لا أزال غاضبًا منه بسبب ما قاله لي حين كنت بالمشفى. تابع هشام:

"ما بك يا سليم؟ أهناك ما يزعجك؟"

قلت في ضجرٍ:

"وكأنك لا تعرف ما يزعجني!"

قال نافيًا عن نفسه الاتهام:

"لا، أبدًا.. ما الأمر؟"

لم أرد عليه، ثم دخل أبي حاملاً صينية عليها ثلاثة أكواب من الشاي ووضعها على المنضدة أمامنا قائلاً:

"رُد على صديقك يا ولد!"

لم أستطع إخفاء دهشتي العارمة؛ فهذا كوب شاي لي وآخر لأبي وآخر.. ماذا؟! سألت بدهشة بدت جلية في صوتي:

"ألم تتوقف عن احتساء الشاي يا هشام؟!"

فأجاب مستغربًا سؤالي:

"لا أبدًا؛ فأنا أحبه كثيرًا."

قلت بذات الدهشة:

"تحبه؟!"

قال:

"وما الغريب في ذلك؟"

فقلت وقد اختلطت عليَّ الأمور:

"انتظر لحظة.. ألم تأتِ لزيارتي في المشفى؟"

قال هشام:

"لا مطلَقا؛ فقد كنت خارج البلاد في تلك الفترة."

سألته محاولاً إخفاء دهشتي:

"أمتأكدٌ أنت؟"

فقال:

"أجل، إلا أنني كنت أعرف أخبارك بفضل والدك.. حمدا لله على سلامتك يا سليم. كدت أنسى! مبارك النجاح يا عزيزي! ليست لديك أدنى فكرة عن كم أسعدني هذا الخبر الرائع"

لم أعبأ بتهنئته؛ فقد كنت مشغولاً بما قال. ألم يأتِ هشام للمشفى حقًّا؟ أم أنه ينكر ذلك فحسب لكونه قال ما أزعجني حينها؟ غمرني التوتر وغادرت الغرفة التي كنا جالسين بها متعللاً برغبتي في الذهاب إلى الحمَّام. إلى متى سأظل أرى أشياءَ يدعون أنها لم تحدث بالفعل؟ لا شك أنهم يخدعونني! غرقت في حيرتي وتساؤلاتي المحيرة التي لا أجد لها جوابًا. قررت بعد أن انخفض توتري قليلاً أن أعود إلى ذات الغرفة حيث يجلسان، ولكني وقفت على بابها أنصت لما يقولانه. كانا يتحدثان عني. سمعت والدي يقول بصوتٍ مضطربٍ:

"لقد سألني الطبيب عمَّا إذا كانت لدي أدنى فكرة عن المرض الذي أنا بصدد التعامل معه. فأجبته بأني لا أعرف عنه شيئًا، إلا أنني أثق بسليم وبقدرته على مواجهة الصعاب. لقد بذل الطبيب ما بوسعه لجعلي أعدل عن قراري بإخراجه من المشفى، إلا أنني لم أفعل بل تمسكت بقراري الخاص وأخرجته من المشفى. آمل أن يكون قراري صائبًا وآمل كذلك أن يكون الطبيب مخطئًا بشأن تحذيراته."

قال هشام:

"سيدي، ثمة شيء غير طبيعي يخص سليم، إنه يعتقد في أني أتيت لزيارته حين كان في المشفى بينما لم أفعل ذلك أبدًا! هل يتناول أدويته بانتظام؟"

فأجاب والدي:

"أجل يا بني.. أعتقد ذلك؛ فليس بوسعه ألا يتناولها. إنه يعتمد عليها تمامًا."

لم تكن لدى والدي أدنى فكرة عن إيقافي تناول الدواء. كنت أقف صامتًا أستمع لحديثهم وأدركت حجم القلق الفظيع الذي سيطر على كليهما. لم أصدر أيَّ صوتٍ؛ كي لا يلاحظا وجودي فيتوقفان عن الكلام إلا أنهما توقفا من تلقاء نفسيهما. دخلت إلى الغرفة فقاما بتغيير الموضوع من فورهما، وأخذ والدي يسأل هشام عن سفره وعن كيف قضى أيامه في الفترة الماضية ثم التفت نحوي مبتسمًا وقال معاتبًا:

"ألن ترحب بصديقك العائد لتوه من السفر؟"

فقلت وبصري لا يكاد يفارق أرضية الغرفة:

"حمدًا لله على سلامتك يا هشام، يسرني كونك عدت سالمًا."

قال هشام:

"سلمك الله يا سليم. تسرني رؤيتك من جديد؛ فقد اشتقت إليك كثيرًا."

أومأت برأسي وحاولت تصنع ابتسامة لأجامل صديقي الوفي. ظننت به الظنون؛ فكيف تسره رؤيتي وأنا على هذه الحال؟ سألته:

"هشام، أخبرني الحقيقة أرجوك.. هل جئت لتعودني في المشفى ولو لمرة واحدة؟"

قال والدي:

"سليم، ما بك؟ سبق وأخبرك صديقك أنه كان خارج البلاد في ذلك الوقت. فلماذا تعيد السؤال نفسه أكثر من مرة؟ ما بال ذاكرتك يا بُنيَّ؟"

صمت محرجًا وأعتقد أن وجهي احمرَّ بدوره من فرط الخجل؛ فقد شعرت بحرارة تغمره، وشعرت كذلك ببرودة في أطرافي. قلت:

"عن إذنكم، أنا متعبٌ وأريد أن أرتاح قليلاً"

نهضت لأترك الغرفة ووقفت عند الباب قليلاً علهما يعاودان الحديث في الموضوع نفسه. قال هشام:

"لم يكن عليك أن تحرجه يا عم حتى وإن بدت ذاكرته ضعيفة."

فقال أبي:

"لم أقصد إحراجه إلا أني لم أرد أن يزعجك بتكراره السؤال، ولم أقصد إخراجه من المشفى كذلك إلا أنني اضطررت لذلك؛ إذ لم أعد أملك المال الكافي لتحمل نفقات علاجه في المشفى، فالمال بالكاد يكفي إعالة أسرتي."

هكذا إذًا! لقد جعلني أبي أغادر المشفى رغم تحذيرات الطبيب كي يتسنى له الإنفاق على زوجته الجديدة! ليتني أكون مخطئًا بشأن هذا الأمر. غضبت كثيرًا وعدت إلى غرفتي ثم ارتميت على سريري غارقًا في بحر من الدموع. لست حزينًا لكوني غادرت المشفى ولكن لكون أبي يهتم بزوجته الجديدة أكثر مما يهتم بي. هل أعد شخصًا سيئًا لهذه الدرجة؟ هل غدوت عبئًا ثقيلاً عليه ويود الخلاص منه؟ ليتني أريحه من هذا العبء للأبد!

***

مَن الذي يحدد المنطق؟ من الذي يقرِّر كيف تكون الحقيقة؟ أعتقد أن الأمر نسبي تمامًا وأنه ما من حقيقة مطلقة. لا شيء مؤكد في هذا العالم الذي نحن بصدد التعامل معه. ماذا لو أصبحت أفكارك غير عقلانية فجأة؟ ماذا لو غدوت تائهًا داخل دماغك؟ ماذا لو أصبح دماغك متاهة تسجنك ولا تستطيع الفرار منها. هل استحال دماغي مكانًا مرعبًا بحق؟ إنني لا أستطيع حل الألغاز التي بصددي والمنوط بي فهمها. سأفقد عقلي عما قريب إن لم أكن قد فقدته أصلاً!

جاء ضيف هذا اليوم لم أتوقع قدومه. حسبت أنه قد غدا من الماضي وأنه لن يعود ثانية. إنه ذلك الشيطان! قلت له:

"أهذا أنت؟! ظننت أني لن أراك ثانية."

قال:

"ما هذا السؤال الغبي؟! بالتأكيد إنه أنا، فمَن أكون سواي؟"

اختلط عليَّ الأمر. ألم يعدني بأنه سيمهلني بعض الوقت؟ هل انتهت المهلة التي منحني إياها؟ سألته:

"لماذا تبعتني إلى هنا؟"

ابتسم ابتسامته المرعبة وقال:

"سأتبعك وإن ذهبت إلى المريخ."

سألته من فوري:

"هل أنت حقيقي؟"

فقال:

"ألا أبدو لك حقيقيًّا؟"

قلت:

"بلى، ولكنهم يقولون إني أتخيل بعض الأشياء."

قال:

"أتصدقهم؟"

فأجبت:

"لا، ليس تمامًا."

فقال:

"إنهم يخدعونك! يعدونك مغفلاً! استمع لنصيحتي ولا تصغ إليهم."

قلت:

"هذا هو ما قالوه عنك بالضبط. لقد أخبرني الطبيب بأنك تخدعني."

غضب الشيطان وقال:

"هراء!"

أفزعتني ردة فعله ثم صمت قليلاً وتنهد بقوة محاولاً الحفاظ على هدوئه ثم تابع:

"المهم، ماذا فعلت بشأن ما اتفقنا عليه؟"

فقلت في وجلٍ:

"لم أفعل شيئًا بعد.. لم أخبرهم بعد بضرورة تسليمي للشرطة."

ثم تذكرت وعيده فاستدركت:

"ولكني لن أخبر أحدًا بما دار بيننا، صدقني! لن أخبرهم بوعيدك وتهديدك بقتلي."

قال:

"حسنا، ولكن ما زال عليك أن تطلب منهم تسليمك لرجال الشرطة؛ فأنت مذنب كما تعلم وتستحق العقاب وإن لم تفعل فأنت تعلم أني سأتكفل بعقابك بنفسي وثق بي.. أنت لا تريد أن تعرف كيف ستكون غضبتي!"

أومأت برأسي مرتعدًا وقد سرت قشعريرة في جسدي. وفي تلك اللحظة، دخل أبي الغرفة قائلاً:

"إلى مَن كنت تتحدث يا سليم؟"

فقلت مضطربًا:

"لا أحد يا أبي.. لا أحد."

قال:

"لقد سمعت صوتك صادرًا من الغرفة.. بالتأكيد كنت تتكلم! لمَ لا تريد إخباري بالحقيقة؟ وما لك ترتعد هكذا؟ أخبرني ما الذي حدث!"

قلت وقد ازدادت رجفتي:

"لا شيء.. لا شيء أبدًا"

قال وقد بدا على وجهه القلق المتزايد:

"حسنًا، اجلس يا سليم. علينا أن نتحدث قليلاً."

جلست على الأريكة امتثالاً لأمره.

سألني والدي:

"أما زلت حريصًا على تناوُل أدويتك بانتظام؟"

فأجبت متفاديًا النظر في عينيه حتى لا يعلم بأني أكذب:

"أجل.. بالتأكيد."

فتابع:

"إذا ما الأمر؟ ثمة شيء ما قد تغير يا سليم.. لقد كانت حالك أفضل حين خرجت من المشفى، فما الذي تغيَّر إذًا؟"

لم أدرِ بما أجيبه؛ فأنا نفسي مشتتٌ ولست أفهم ما حدثَ تمام الفهم. أيعقل أن يكون ترك الدواء هو السبب في كل ذلك؟ انتزعني أبي من صمتي حين قال:

"رد عليَّ يا بني.. أنت تزيد من قلقي عليك!"

شعرت بالذنب لكوني أزيد من قلقه ولم يسعني سوى أن أقول:

"لا تقلق يا أبي؛ فأنا بخير."

رأيت الشيطان في تلك اللحظة ينظر إليَّ من بعيد شامتًا بي وبالعجز التام الذي وصلت إليه. كدت أبكي ولكني كظمت دموعي حتى أريح أبي من قلقه بعض الشيء.

***

قضيت الأيام التالية أدعو الله أن ألتقي بأمي ولو لمرة واحدة تحدثني فيها. اشتقت إليها كثيرًا ولم أعد أعرف كيف أصبحت حالها. لم أُرِد تصديق أنها قد فارقت الحياة ولا أني قتلتها في الغابة، إلا أن تلك حقيقة لا مناصَ منها. لم أكن أتخيل أن الله سيستجيب لدعائي بهذه السرعة. لم أتخيل للحظة أنه من الممكن أن ألتقيها مجددًا. وعلى عكس توقعاتي فقد جاءت لتزورني في غرفتي في اليوم التالي. رحبت بها قائلاً:

"لقد اشتقت إليك يا أمي، أين كنت؟"

لم ترد عليَّ فخشيت أن ترحل كما في المرة الماضية دون أن أتلقى جوابًا عن أسئلتي المهمة فبادرت بطرح السؤال الأهم بالنسبة لي:

"ألم أقتلك؟"

قالت في عجبٍ:

"قتلتني؟! سليم، أنت فتى جيد ولا ينبغي لك أن تقتل أبدًا."

لم أقتنع وإنما ازدادت حيرتي وتابعت:

"إذًا فأنت لا تزالين على قيد الحياة، أليس كذلك؟"

لم ترد وإنما ابتسمت فحسب فقلت:

"أمي، أرجوك.. لقد دفعتني أفكاري إلى حيز المجانين ولا أدري ما إن كان عليَّ تصديقها أم لا.. ما عدت أميز الحقيقة من الخرافات!"

لم ترد أيضًا، فعدت أرجوها:

"أمي، أرجوك ردي علي يا عزيزتي.. قد تكون تلك الفرصة هي الأخيرة. أخبريني هل قتلتك حقًّا؟!"

قالت:

"أنت فتى جيد يا سليم، ولا ينبغي لك أن تقتل."

ما الذي جرى لها؟ لماذا تردد الكلام نفسه وكأنما لا تحفظ سواه؟ ما شأني بما إن كان ينبغي لي أن أقتل؟ أريد أن أعرف ما إن كنت قد قتلتها، وهي لا تريد إعطائي إجابة شافية! قلت مستجديًا إياها:

"أمي، قد لا أراك ثانية.. أرجوك أعطني جوابًا!"

قالت "أنت فتى جيدٌ يا سليم ولا..."

قاطعتها صارخًا "كفى! كفّي عن ترديد الجملة نفسها!"

فزعت أمي من جراء صراخي، أما أنا فأخذت أبكي ندمًا على صراخي بها. شرعت أمي تمسح دموعي بيدها الحانية دون أن تنطق بحرفٍ واحدٍ ثم رحلت كما يذوب الملح في كوب الماء. كان ذلك غير منطقي على الإطلاق، ولكن ما المنطقي أصلاً؟! أيقنت أنها رحلت إلى غير رجعة وأني قمت بتضييع فرصة ثمينة لمعرفة الحقيقة ولن أسامح نفسي على ذلك ما حييت! أخذت أصرخ "أمي، لا ترحلي! لا تتركيني وحيدًا! أرجوك ابقي قليلاً؛ فأنا لا أستطيع الحياة من دونك!" جاء أبي فور سماعه صوت صراخي إلا أنه لم يوجه لي كلامًا ولم يسألني عن شيء بل ضرب كفًّا بكفٍّ ثم تمتم بكلمات لم تلتقطها أذني. المسكين! لا بُدَّ أنه يعتقد أنه فقدَ ابنه!

***

أعلم أن عقلي قد عذَّبني كثيرًا، لذا فقد كان حلمي الضئيل في تلك الفترة هو أن أشوش قليلاً على صوته. جلست أشاهد التلفاز وقد رفعت صوته كثيرًا إلى حدِّ

إثارة الصداع علَّ ذلك يغطي على أصوات أفكاري التي بدت وكأنها تروس مزعجة تتحرك داخل دماغي. أجل! فأنا أشعر بحركتها المستمرة. دخل أبي الغرفة وأخبرني بأنه ثمة أحد قد قدمَ لزيارتي. تأففت ولم أتكلف عناء النظر إليه بينما قلت:

"ليس الآن."

لم أُرِدْ أن أقابل أحدًا، ولم أكن مستعدًا للحديث مع أحدٍ. لم يعبأ أبي بما قلت وذهب ليستدعي الزائر. ترى، من سيكون هذه المرة؟ لم تطل حيرتي؛ فسرعان ما دلف هشام إلى الغرفة. أطفأ هشام جهاز التلفاز قائلاً في حزمٍ:

"علينا أن نتحدث يا سليم."

فسألته متذمرًا:

"ما الأمر؟ لماذا يرغب الجميع بالتحدث إليَّ الآن؟ إنكم لم تأبهوا بالحديث إليَّ قبل مرضي المزعوم، فلماذا تتنافسون على الحديث إليَّ الآن حين أصابتني تلك المحنة؟ ألأنكم تشعرون بالذنب تجاهي ما يؤرق منامكم بالليل؟ أليست تلك هي الحقيقة؟ ولماذا يجب عليَّ أن أحتمل كلامكم المزعج؟ لماذا ينبغي عليَّ أن أرضخ لأوامركم حتى وإن كرهتها؟"

قال هشام:

"ماذا دهاك يا سليم؟"

قلت في غضبٍ:

"أخبرني.. ألست مُحِقًّا بشأن شعوركم بالذنب؟! أنتم لا تهتمون لأمري بل لا يهمكم سوى أنفسكم!"

صمت هشام فظننت أني على صواب وقلت متذمرًا:

"والآن أوقد التلفاز؛ فقد سئمت سماع كلامك الفارغ!"

قال هشام:

"لا لن أفعل! إن لم أكن أهتم لأمرك لما قدمت إلى هنا. وقد كنت أهتم لأمرك مذ كنا صغارًا حتى وإن لم نتحدث كثيراً لسببٍ أو لآخَر. وإن لم يكن والدك يهتم لأمرك لما ترك عمله ليمكث إلى جوارك! معادن الناس تتجلى في الشدائد يا سليم! وأنا لن أتركك مهما فعلت."

سألته:

"ولماذا؟" فأجاب "لأنني صديقك يا سليم! والأصدقاء الحقيقيون لا يتخلون عن بعضهم وقت الشدة أبدًا حتى وإن تردت علاقتهم بعض الشيء."

زفرت في ضجرٍ بينما تابع هشام:

"سليم، أنت تعني لي الكثير حتى وإن لم تدرك ذلك الآن. ثم ما هذه الفوضى التي تعيش فيها؟! ألم تفكر لوهلة بترتيب هذه الغرفة؟"

فأجبته متحديًا إياه:

"لا، أبدًا.. ولن أرتبها!"

قال:

"ولِمَ؟ ألا تكفيك الفوضى الكامنة في دماغك؟!"

قلت وقد استفزني هدوؤه:

"لا شأن لك بالفوضى الخاصة بدماغي!"

قال ولم ينهره حديثي عن هدوئه المستفز:

"عليك أن تشغل نفسك يا سليم حتى تكف الأفكار عن مضايقتك. لطالما أحببت قراءة الكتب، فلمَ لا تعاود فعل ذلك بدلاً من جلوسك صوب التلفاز طيلة الليل والنهار؟"

قلت في حزن:

"لم أعد أستطيع القراءة."

فقال:

"إذًا فاخرج من بيتك ومارس الرياضة في الهواء الطَّلِق؛ فهذا كفيلٌ بتحسين مزاجك."

قلت:

"لا أملك القدرة على ذلك؛ فأنا منهك دائمًا."

قال:

"فابدأ بالصلاة إذًا ومارس طقوس عبادتك. صدِّقني، ستخرج بالأنشطة من تلك البركة الموحلة التي وقعت فيها رغمًا عنك."

لم أجبه بل تأففت في ضجرٍ؛ فلم أكن أصدق أيًّا مما قال. قال هشام:

"ماذا؟ هل أعجبك البقاء فيها؟ حسنًا، ابقَ حيث أنت حتى يدخل الوحل إلى فمك!"

ثارت ثائرتي وضقت ذرعًا بأسلوبه المستفز فانطلقت أصرخ به:

"لا شأنَ لك بي! توقف عن إسداء النصائح الآن واتركني وحدي؛ فهذا خير لكلينا!"

جاء والدي على إثر صراخي وقال:

"لماذا تصرخ بصديقك هكذا؟ أهو ذنبه أنه جاء لينصحك؟ إنه لم يرد سوى مصلحتك."

فقلت:

"يمكنه أن يحتفظ بنصائحه لنفسه؛ فلست بحاجة إليها! ولست بحاجة إليه كذلك ويمكنه أن يجد صديقًا آخر!"

أعماني الغضب عن إدراك كم كان كلامي جارحًا بالنسبة لهشام. لقد آذى كلامي صديق عمري الوحيد الذي لم يرد سوى الوقوف إلى جواري في محنتي. لم أفكر بالكلام قبل أن أتفوه به. أحيانًا تكون كلماتنا أكثر إيلامًا وأشد فتكًا من الرصاص! قال هشام معتذرًا:

"أرجو المعذرة يا عم، سأغادر الآن."

صرخ والدي:

"انتظر يا بني! انتظر يا هشام!"

إلا أن هشام أسرع بالمغادرة ولم يزل أبي يحاول إقناعه بالبقاء؛ فقد انطلق وراءه محاولاً الاعتذار منه نيابة عني. هويت على السرير بينما كنت أفكر:

"ما الذي فعلته بحق الجحيم؟! لماذا تفوهت بتلك الكلمات الطائشة؟ لماذا أخبرته بأني لم أعد بحاجة إليه؟ ما كان عليَّ أن أعامله بتلك الطريقة الفظة حتى وإن تملكني الغضب. لماذا تفلت مني زلات اللسان تلك؟ قد أكون خسرت صديقَ عمري للأبد!"

دخل أبي الغرفة وهو يلهث من جراء ركضه وراء هشام. كان متجهمًا بشدة فأيقنت أنني قد وقعت في ورطة كبيرة. قلت محاولاً تهدئته:

"أبي، أنا آسف.. أنا لم أقصد أن..."

قاطعني أبي قائلاً في غضبٍ:

"ماذا؟! لست أنا من تدين له بالاعتذار بل صديقك هشام. ألا تخجل من نفسك يا فتى؟! لم يأتِ صديقك سوى للاطمئنان عليك، أهكذا يكون استقبالك له؟! أهكذا يكون عرفانك بالجميل؟!"

قلت:

"ولكن يا أبي..."

لم يدع لي فرصة للحديث وإنما قاطعني من جديد قائلاً في حزم:

"اسمعني.. إن لم تذهب وتعتذر لصديقك الحريص عليك وعلى مصلحتك، فلست أباك ولا يسرني أن أعرفك بعد الآن! أتفهم؟!"

جحظت عيناي وقد صعقني ما قال. انعقد لساني وعجزت عن النطق بجواب فأعاد سؤاله: "أتفهم؟!"

أومأت برأسي في خوف وازدردت ريقي بصعوبة إذ شعرت بجفاف في حلقي. أما والدي، فلم يردعه ذهولي عن مغادرة الغرفة.

***

كنت في حيرة من أمري. لقد غضبت من هشام لأني اعتقدت أنه جاء لإلقاء العظات، ولكن ما كان عليَّ التفوه بمثل هذه الكلمات المؤذية. ترى ماذا ينبغي عليَّ أن أفعل؟ هل يجب عليَّ بالفعل أن أعتذر من هشام عما بدرَ مني؟ أجل أعتقد ذلك، ولكن هل سيقبل اعتذاري؟ لم يعد أمامي خيار آخر: عليَّ المحاولة إن لم أرد خسارة شخصين في الوقت نفسه. ذهبت في اليوم التالي للواقعة إلى منزل هشام. طرقت الباب ففتحه هشام قائلاً وقد بدا عليه الذهول:

"سليم؟! تفضل بالدخول"

دخلت إلى المنزل خجلاً أتصبب عرقًا. جلسنا في غرفة المعيشة وبدأ هشام الحديث قائلًا:

"ماذا تريد أن تشرب؟"

ترى لماذا يعاملني بلطفٍ بينما عاملتُه بجفاء وأخطأت بحقه كثيراً؟ قلت مسرعًا:

"لا شيء.. لا داعي لذلك. أريد أن أتحدث إليك فحسب."

قال معاتبًا:

"ألم تقل إنك لم تعد بحاجة إليَّ ولا إلى الحديث معي؟ لماذا تريد الحديث الآن؟"

شعرت بحرارة تغمر وجهي وتكاد تذيب ملامحي من فرط الخجل ثم قلت:

"أرجو المعذرة يا هشام؛ فأنا لم أقصد إهانتك. إنها محض زلة لسان غير مقصودة في لحظة غضب. أرجو أن تسامحني على ما بدرَ منِّي."

تنهد هشام قائلاً:

"لا عليك يا سليم.. لا عليك يا صديقي؛ فكلنا يخطئ"

سألته:

"أتعني أنك لم تعد غاضبًا مني؟"

هز رأسه نافيًا ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة رائعة وقال:

"لا.."

تهلل وجهي ونهضت من فوري أحتضنه وأقبِّل رأسه. كنت ممتنًا كثيرًا لوجود شخص رائع مثله في حياتي. عاودت الجلوس ولا زالت السعادة والامتنان يغمرانني. شعرت بالراحة وكأنما ارتحت لتوي من عبءٍ ثقيلٍ أنقض ظهري. قال هشام:

"سليم، أبوك قلق عليك.. وأنا كذلك. يبدو لي أنك لست في أفضل حالاتك. أريد أن أسألك سؤالاً وأرجو أن تصدقني القول".

امتقع وجهي وتبدلت ملامحه. اختفت أمارات الفرح من عليه وغزته ملامح الذعر؛ إذ أدركت ما هو بصدد قوله. لم يخب ظني أبدًا؛ فقد قال:

"أما زلت تتناول أدويتك؟"

شحب وجهي وأطرقت برأسي موجهًا بصري للأرض. هززت رأسي نافيًا ثم رفعتها وقلت في لا مبالاة:

"لا.."

أومأ هشام برأسه في حزن بدا جليًّا في ملامحه ثم قال:

"لماذا يا سليم؟"

فصرخت قائلاً:

"لأني لم أعد بحاجة إليها!"

قال هشام:

"تذكر يا سليم.. يمكنك دائمًا إخباري إن كان هنالك ما يزعجك، يمكننا أن نجد حلاً سويًّا.. أتعدني بذلك؟"

قلت وقد أشحت بوجهي عنه:

"أعدك"

لم أُرِده أن يرى الدموع في عيني. تمنيت حينها لو أدفن وجهي بين كفي وأجهش بالبكاء إلا أنني لم أفعل. لم أكن متأكدًا مما إن كان سيتسنى لي الوفاء بوعدي أم لا. وددت حينها لو أخبره عن الشيطان وتهديده إلا أنني خشيت وعيد الشيطان إن أنا وشيت به فعدلت عن رغبتي. خشيت أن يعتقد هشام أني شخص سيء إن أنا أخبرته بأمر قتلي لأمي. أردت أن أشاركه معاناتي وأن أطلعه على أشد ما يزعجني إلا أني تراجعت عن فعل ذلك خشية إزعاجه. لم أستطع احتمال توتر الموقف لمزيدٍ من الوقت فنهضت من مجلسي واعتذرت قائلاً:

"عليَّ المغادرة؛ فوالدي ينتظرني في المنزل.. آسف مجددا"

أمسك هشام بيدي قائلاً:

"انتظر قليلا يا سليم"

فقلت:

"لا أستطيع.. أنا آسف"

أفلت هشام يدي وقال:

"حسنا، ولكن لا تنس وعدك لي"

أومأت برأسي وسارعت بالمغادرة وبمجرد أن خرجت من منزله انفجرت في بكاء عنيف؛ فقد ارتكبت خطأ مجحفًا بحق نفسي!

***

عدت إلى المنزل فوجدت والدي بانتظاري. قال:

"أهذا أنت يا سليم؟ أخبرني.. هل اعتذرت من صديقك؟"

فأجبته:

"أجل."

لم أخبره شيئًا عما دار بيننا بعد ذلك ولا عن الوعد الذي قطعته لهشام. سألني أبي وكأنما شعر بأن للحديث بقية:

"وماذا بعد؟"

فأجبت:

"لا شيء.. لا شيء أبدًا"

لم يقتنع والدي بما قلت وقال:

"ما الأمر؟ هل تشاجرتما مرة أخرى؟"

فقلت:

"لا.. لم نفعل."

قال:

"إذًا ماذا هناك؟"

يبدو أن والدي قد لاحظ الدموع في عيني إذ قال:

"وما تلك الدموع في عينيك؟"

سارعت بمسحها وتذكرت أمرا هاما فقلت:

"أبي.. ثمة شيء أرغب في قوله لك."

قال:

"وما ذلك الشيء؟"

فقلت في تردد:

"لقد.. لقد زارتني أمي قبل بضعة أيام، وقالت لي إنني..."

قاطعني أبي فجأة صارخًا في غضب:

"ألن تكف عن هذا الهراء يا سليم؟! ألم نحسم هذا الأمر بعد؟! أمك متوفاة منذ سبع سنوات! لم أنت عاجز عن تصديق ما حدث؟! لماذا تظل غارقًا في ظنونك البعيدة كل البعد عن واقعنا؟!" قلت له متجاهلاً كل ما درست عن ضرورة احترام الوالدين؛ فوقع كلماته كان أقوى من أي مبادئ تعلمتها:

"اصمت!"

فقال:

"لن أصمت! لن أصمت أبدًا! إنها الحقيقة وعلينا أن نقبلها سواء أحببناها أم لا. قد لا تروقنا بعض أحداث الحياة إلا أن علينا أن نقبلها كما هي وأن نستمر في حياتنا؛ فالحياة لن تتوقف وهي لن تعبأ بما إن قبلنا وقائعها أم لا! الحياة لا تنتهي بانتهاء أحد يا سليم! لن تنتهي بموتي ولا بموتك ولا بموت أمك نفسها! دع أمك وشأنها وامض قدمًا في حياتك!"

صرخت به كالمجنون وقد أفقدني كلامه صوابي:

"قلت اصمت!"

تنهد أبي محاولاً كبح جماح غضبه وقال:

"حسنًا يا سليم.. سأصمت. ولكن اعلم أنك إن لم تتوقف عن اجترار الماضي وعن إتلاف حياتك بهذه الطريقة، فسوف أعيدك إلى المشفى وهذا هو آخر ما ترغب فيه."

فسألته:

"وماذا ستفعل بشأن النقود؟"

قال:

"لا شأن لك.. سأتدبر أمري."

ثم استدرك قائلاً وقد تذكر أنه لم يصرح بهذا الأمر لي:

"انتظر لحظة.. لا تقل أنك كنت تتنصت عليَّ بينما كنت أحاور صديقك!"

صمت ولم أدرِ ما أقول؛ فقد نسيت أنه لم يخبرني بسبب إخراجه إياي من المشفى وإنما صرح به لهشام. قال بلهجة عتاب "يجدر بك التصرف على نحو أفضل" أدركت أني أخطأت مجددًا، وأني ربما لن أفعل شيئًا صائبًا في حياتي.

***

قضيت الأيام التالية في حال سيئة جدًّا. أمضيتها بين رحى طاحونة أفكاري اللعينة التي أخذت تتقاذفني يمنة ويسارًا ولم تدع مكانًا شاغرًا في دماغي الفوضوي. يا لها من فوضى عارمة! كنت أحاول الهروب من تلك الوحوش التي تسكن رأسي بالنوم لفترات طويلة تفوق العشر ساعات في اليوم الواحد. كنت أغلق ستائر غرفتي طيلة النهار؛ لئلا يمنعني ضوء الشمس من الخلود للنوم. لم

تعد لدي شهية تُذكَر لتناول الطعام، فكنت بالكاد آكل شيئًا وأعيش على الماء وبعض الفتات رغم محاولات أبي الدؤوبة لجعلي أتناول وجبة ما. بدا حزينًا جدًّا لأجلي، ولم يعلم ما عليه فعله للإبطاء من تدهور حالتي. لم يخطر بباله مطلقًا أن يأخذني للطبيب ليفحصني. لم يكن أبي يتجاهل أخذي للطبيب عمدًا بل كان ينسى الأمر تمامًا كما ينسى الكثير من شئونه الخاصة فلم تكن ذاكرته بخير حال هذه الأيام. بدا متجهمًا مثلي تمامًا إلا أني لم أكن أعلم يقينًا إن كنت مكتئبًا أم لا. كنت متأكدًا من كوني أغرق في بحر أفكاري اللجي. انتهى أمر تركيزي ولم أعد أعير شيئًا أدنى اهتمام. كان أبي يواسيني حينًا ويطلب مني أن أخرج مما أنا فيه وألا أكون على هذه الحالة حينًا آخر. وأظن أنه كان يشعر بالعجز الشديد في الحالتين؛ لكونه غير قادر على مساعدتي. أحيانًا يحاول المزاح معي للتسرية عني فكنت أتكلف عناء مجاراته وتصنع الابتسامة بعض الوقت ولا أعبأ بذلك في أحيانٍ أخرى. ذهبت نفسي حسرات؛ فقد كنت متألمًا لحالي كما شعرت بأن أبي يشعر بالإلزام تجاهي وبأنه مجبر على الاهتمام بي. شعرت كذلك بالذنب تجاه قتلي لأمي الذي غدوت متيقنًا منه. تمنيت في تلك الأيام أن أنام فلا أستيقظ أبدًا وأن ينتهي كل شيء إلا أن هذا لم يحدث أبدًا؛ فقد كنت أستيقظ كل يوم لأجد نفسي في ذات البركة الموحلة التي وصفها هشام. أعتقد أن الوحل قد دخل إلى فمي بالفعل. لم تفلح جهود والدي المضنية في إدخال السرور على قلبي التعس. حاول المسكين عدة مرات استرضائي بالحلوى التي أحبها فلم أتناولها غير آبه لما قد يصيبه من خيبة أمل. المشكلة هي أني لم أعد أشتهي أي شيء، ولم تكن لدي أدنى رغبة في فعل شيء يُذكَر. كنت أفكر بالموت كثيرًا إلا أني لا زلت أخشاه؛ لأنه مصير مجهول بالنسبة لي. أهملت نظافتي الشخصية ونظافة غرفتي كذلك وصرت أعيش في فوضى عارمة أسوأ بكثير من تلك التي رآها هشام ذات يوم. كنت أبكي أحيانًا وأشعر بأني متبلد المشاعر أحيانًا أخرى. كنت عاجزًا تمامًا عن تجاوُز ما أعانيه، ولم

تفلح محاولات أبي في انتزاعي من ذلك الكهف المظلم. كنت أحيا في قلقٍ مُستمِرٍّ إزاء أحداث كنت أعدُّها عادية سابقًا، وإزاء احتمال زيارة الشيطان لي مرة أخرى. لم أرغب في لقاء أحدٍ أبدًا بما في ذلك هشام؛ فقد كنت بالكاد أحتمل وجود أبي إلى جواري. كثيرًا ما كنت أنفجر فيه غاضبًا حين يصر على تناولي الطعام فأقوم بالإطاحة بصينية الطعام فينسكب الطعام على ثيابي، وبالطبع لا أتكفل بتنظيفها بل يتكفل والدي بذلك. بدوت غير مقدر لكل الجهود التي يبذلها ذلك المسكين بنفس راضية وحمول من أجل التهوين عليَّ والتخفيف من وطأة معاناتي، إلا أني كنت أشعر بالذنب الشديد تجاهه. كان أبي يعود من عمله ليجدني إما نائمًا وإما جالسًا على السرير أحملق في سقف الغرفة دون فعل شيءٍ يُذكَر. فإن وجدني نائمًا فإنه غالبًا ما يتركني بعد أن يطمئن إلى أنني لست ميتًا، وإن وجدني مستيقظًا فإنه يحاول إقناعي بالنهوض والخروج للتنزه في حديقة المنزل مثلا فلا يفلح في جعلي أستجيب لرغبته فيستسلم أخيرًا ويتركني وشأني. بدا كل عمل بسيطٍ صعبًا جدًّا من وجهة نظري. كنت مدركًا تمامًا لقلق والدي بشأني، وقد كان محقًّا في ذلك. لم أكن أرغب في الحديث أبدًا، إلا أنني كنت أتحامل على نفسي لأنطق بضع كلمات مقتضبة؛ كي لا أشعر بمزيد من الذنب تجاه والدي وكي لا أصيبه بمزيد من الحزن والقلق. لا بُدَّ أنه كان يشعر بالذنب مثلي تمامًا؛ إذ هو أخرجني من المشفى. لا أدري حقًّا إن كان خيرًا لي لو بقيت هناك لفترة أطول. لماذا كان الطبيب يحاول استبقائي هناك لفترة أطول يا ترى؟ لماذا بذل كل ما في وسعه لإقناع والدي بتركي في المشفى لمزيد من الوقت؟ ما الذي توقع حدوثه؟ هل كان على عِلْمٍ بأن هذا هو ما سيحدث بمجرد خروجي؟ كان ثمة سؤال مُحيِّر يحتل قدرًا كبيرًا من تفكيري، ولم أجد له جوابًا بعد: هل ما أعانيه حقيقي أم أنني أفتعل المرض لأحصل على شفقة الآخرين واهتمامهم؟ وددت للأسف أن يكون مرضًا حقيقيًّا؛ لكرهي أن أكون مثيرًا للشفقة. أشعر أنه ثَمَّة حفرة في صدري.. تُرَى مَن أوجد هذا الخواء بداخلي؟ إنه

مؤلِمٌ بحَق! هل أضحيت محض كيان غدا فارغًا من مكنونه؟ هل أصبحت جسدًا بلا روح؟ أعتقد ذلك خصوصًا حين لا أشعر بشيءٍ. أعتقد حينها بأني غدوت جمادًا خاويًا من كل معنى. هل الاكتئاب هو المسئول أم ماذا؟ هذا إن كنت مكتئبًا أصلاً! ما الذي جرى لي؟ وحين تغمرني المشاعر، أشعر كما لو أن بركانًا قد استعر بداخلي! إنه يحرقني بحممه المشتعلة! أشعر بانصهار أعضائي الداخلية عضوًا تلو الآخر تحت وطأته! اشتقت لهطول المطر ليخمد تلك النيران التي تلهب كياني. أود حينها لو أعود لحالي المتجمدة، إلا أن كلتي الحالتين لا تريحانني. لقد ضقت ذرعا بكل ما يجري لي، وأتمنى بصدق أن ينتهي كل شيء. ولكن كيف إن لم يحن أجلي بعد؟ ليتني أستطيع وضع حد لمعاناتي الجمة. لا بُدَّ لشيء ما إن يتغير؛ إذ لا أحتمل سير الأمور على هذا المنوال! علي أن أتجاوز تلك المحنة بأسرع ما يمكن، وليست لدي أدنى فكرة عن كيف سأتجاوزها وعن ما إن كنت سأتجاوزها أصلاً! ثمة أمور كثيرة تحير عقلي. ليتني أحظى بفرصة ثانية لرؤية أمي؛ علها تخبرني بما إن كنت قد قتلتها. ليتني أرتاح قليلاً!

***

ساءت الأمور كثيراً بعد ذلك؛ فقد كان عندي يقين لا يخالطه شك بأن والدي قد تم استبداله من قبل المنظمة السرية بشبيه له. حل مكانه شخص غريب يشبهه تمامًا. كان كل ما حولي يخبرني بأن هذه هي الحقيقة، ولم يكن هناك شيء قادر على أن يزعزع اعتقادي الراسخ القوي. فطريقة كلامه وطريقة مشيته مختلفتان، وكذلك تصرفاته وشتى حركاته وسكناته. كل شيء يخصه مختلف عن ذي قبل. حاول أبي طمأنتي إلى أن ذلك لم يحصل أبدًا إلا أن ما كان يقوله لم يزدني إلا يقينًا من اعتقادي. حاول والدي إقناعي بأن تلك الفكرة ما هي إلا إحدى الضلالات الكثيرة التي تجتاح عقلي فلم أصدقه أبدًا. لم أرد تصديق كوني أعاني

من ضلالات؛ فأنا لست مجنونًا في نهاية المطاف! قضيت عدة أيام تحت رحمة تلك الفكرة. وذات يوم، عاد الشيطان لزيارتي فأيقنت أنه قد جاء لتنفيذ وعيده فتملكني الرعب. دلف إلى الغرفة وقال:

"كيف حالك أيها الأحمق؟"

قلت متذمرًا:

"لست أحمقَ!"

قال غير عابئ بما قلت:

"هل أخبرتهم بما اتفقنا عليه، أيها الأحمق؟"

وجهت بصري للأرض وقلت بصوتٍ منكسرٍ:

"لا.."

ثم رفعت بصري إليه وسألته متحديًا إياه:

"لمَ لا تخبرهم أنت؟ ألا تراهم؟"

مطَّ شفتاه وقال:

"بلى أراهم.. ولكن أنت من ارتكبت الجريمة وأنت من يجدر به إخبارهم؛ لترتاح من شعور الذنب الذي يعذبك."

قلت متهكمًا:

"وكأنك تهتم لأمري!"

فقال:

"لا أبدًا.. أنا لا أعبأ بأحمق مثلك."

صمت ولم أدرِ ما عليَّ قوله فتابع مهددًا:

"إنها فرصتك الأخيرة.. إن تكاسلت عن تنفيذ أمري، فلا تلمني على ما سأفعل! أنت لا تستطيع إخبارهم لأنك محض متخاذل جبان! أنت أجبن من أن تطلب معاقبة نفسك! أنت مثير للاشمئزاز!"

صرخت:

"وما الذي يجعلني أمتثل لأمرك؟! من أعطاك حق إصدار الأوامر؟!"

قال ببرودٍ:

"أنت مضطر لتنفيذ أمري؛ لأني إن لم أتكلف عناء معاقبتك فستتكفل نفسك بذلك، وأنت تعرف مدى بطشها وتعي جيدًا قدرتها الخارقة على تعذيبك، أم أنك تحتاج إلى أن أخبرك بذلك؟" هززت رأسي نافيًا، وشعرت بحزنٍ شديدٍ. إنه يبصر تمامًا نقاط ضعفي ويحسن استغلالها ضدي. إن كان الشيطان من صنع عقلي حقًّا فهذا يعني أن دماغي هو أكثر الكيانات قدرة على تعذيبي وإيلامي. دخل أبي الغرفة وقال في تذمُّر:

"إلى من كنت تتحدث هذه المرة؟"

فقلت:

"سيدي.. إنه الشيطان.. إنه يأمرني بأن..."

قاطعني والدي قائلاً:

"انتظر لحظة.. من هو ذلك الشيطان؟"

ترددت في إخباره؛ فلم أكن أعلم إن كان علي أن أخبره بحقيقة شخصه. تابع أبي:

"ألم نُنِه الأمر بعد يا سليم؟ إنها محض هلاوس صنعها عقلك المريض! إنها من صنع خيالك ولا تَمُتّ للواقع بِصلَةٍ!"

صرخت في غضبٍ:

"أنت لا تعرف شيئًا! ما تدعونه أنتم هلاوس هو ما يمثِّل واقعي!"

قال أبي:

"إنك تتفادى حقيقة واقعك ولا تريد أن تعترف بها فتستعيض عنها بالهلاوس! اعترف بالواقع حتى تتخطى هذه المرحلة.. اعترف به ولو لمرة واحدة في حياتك! إنك لا تريد أن تعترف حتى بوفاة أمِّك!"

صرخت وقد جن جنوني:

"كفى! ليست لديك أدنى فكرة عما أشعر به! أتظنني أفتعل ذلك؟ ليتني أستطيع وضعَ حدٍّ له! ليتني أستطيع أن أكون مثلكم! أنا لا أستطيع تجاوُز ما أمرُّ به.. لا أستطيع!"

وهنا انهمرت دموعي الساخنة محرقة مقلتي. قال والدي وقد وضع يده على كتفي محاولا تهدئتي "سليم.. بني، أنت تستطيع فعل ما يحلو لك، ولا أحدَ يستطيع إرغامك على فعل ما يخالف معتقداتك حتى وإن كان شيطانًا."

صرخت به:

"أنت كاذب! أنت لست والدي أصلاً! ولا أدري لماذا انتحلت شخصية والدي. لن أصدقك أبدًا!"

لم يحاول والدي أن يجادلني كما كان يفعل في المعتاد بل أومأ برأسه في حزنٍ وقال:

"حسنًا يا سليم.. استرح الآن ولا تبال بشيءٍ أبدًا."

غادر والدي الغرفة وذرفت الكثير من الدموع، ثم غفوت علِّي أستريح من أفكاري قليلاً.

***

استيقظت في اليوم التالي على صوت والدي الذي ظننته رجلاً غريبًا:

"سليم، استيقظ يا رجل؛ فقد صار الوقت متأخرًا."

نهضت فزعًا وسألته:

"مَن أنت؟!"

قال في حنوٍّ وقد وضع يده على كتفي:

"لا عليك من ذلك.. صباح الخير يا عزيزي، آمل أن تكون قد نمت جيدًا."

لم أُجِبه وإنما بقيت محملقًا في وجهه في محاولة بائسة لتبين من يكون. قال محاولاً انتزاعي من أفكاري:

"سأحضر لك الفطور، وآمل أن تأكله هذه المرة."

ذهب أبي وتركني غارقًا في ظنوني. تخيلت بعد ذلك شخصًا ما ماثلاً أمامي وأخذت أسأله عمن يكون ويبدو أنني حاورته طويلاً؛ فقد جاء والدي بينما لازلتُ أتحدث إليه. لم أتبين هويته أبدًا. كادت صينية الطعام التي كان يحملها أبي تنسكب رغمًا عنه حين رآني أحاور شخصًا غير مرئي بالنسبة له. وضع أبي صينية الطعام أمامي، وجلس على الكرسي المجاور لسريري قائلاً في حزمٍ:

"تناول طعامك."

فقلت:

"لا أريد ذلك؛ فشهيتي غائبة."

قال وقد استحال حزمه غضبًا:

"قلت: تناول طعامك!"

تساءلت مستغربًا:

"ما الأمر؟"

قال:

"ألا تعرف ما الأمر؟"

فأجبت ببراءة:

"لا"

ترى ما الذي يرمي إليه؟ ما الذي بدرَ مني وأزعجه إلى هذا الحد؟ نظر إليَّ وقد ظنَّ أني أمثل دور الأبله وقال:

"لقد أخبرني صديقك هشام بأنك لم تعد تتناول أدويتك منذ زمن طويل."

أدركت أنه قد افتضح أمري وحاولت نفي التهمة عن نفسي قائلاً:

"هشام؟! ذلك الكذاب! لا تصدقه؛ فهو يخدعك!"

قال:

"هشام لا يكذب.. لقد شككت في أمرك منذ البداية ولكني كنت أكذِّب حدسي، إلا أنني حين سمعتك تتحدث إلى أشخاص غير موجودين تأكدت من صدق ظنوني."

لم أدرِ بما أخبره فلزمت الصمت رغمًا عني أما هو فتابع:

"اسمع، لقد اتصلت بالطبيب وطلبَ منِّي أن أحضرك لمقابلته كي يفحصك، وسنذهب من فورنا.. هيَّا، ارتدِ ثيابك!"

قلت في حزمٍ:

"لا، لن أقابل أحدًا.. لا أريد رؤية أحدٍ ولا سيما الطبيب!"

قال أبي:

"بل ستراه.. وستنهض الآن."

صرخت به:

"قلت لن أرى أحدًا!"

صرخ بدوره قائلاً:

"بل ستذهب لرؤية الطبيب وستجيب عن كل أسئلته!"

لم يعد أمامي خيارٌ سوى أن أمتثل لأمره؛ فهو لن يتركني وشأني.

ذهبنا إلى المشفى الذي كنت أعالج فيه لنقابل الطبيب. وبمجرد أن دخلت، رحَّب بي الطبيب ومدَّ يده ليصافحني فصافحته مستغربًا من كونه قد رحَّب بي وجسدي تفوح منه رائحة نتنة إذ لم أستحم منذ أسبوعين؛ لأني لم أعد أملك الطاقة الكافية لفعل شيء. طلبَ مني الطبيب الجلوس على الكرسي الملاصق لمكتبه فهويت على الكرسي متعبًا، مهما نمت لساعات طوال فإني أستيقظ متعبًا في اليوم التالي على ذات الحال التي كنت عليها حين طرحت جسدي على الفراش. طلب الطبيب من والدي الانتظار بالخارج فامتثل لطلبه. سألني الطبيب:

"كيف حالك يا بطل؟"

لم أجبه وإنما أومأت برأسي. كنت متذمرًا إذ أحضرني والدي إلى هنا رغمًا عني. قال الطبيب: "أخبرني، أما زال ذلك الشيطان يزورك؟"

نظرت إليه في شكٍّ. يجدر به أن يعرف إن كان يتجسس على أفكاري حقًّا. لم أعرف إن كان عليَّ أن أجيبه؛ فينبغي له أن يعرف هذا من تلقاء نفسه. ولمَ لا؟ أليس قائد تلك المنظمة السرية؟ يبدو أن الطبيب قد لاحظَ تردُّدي فقرر أن يسألني سؤالاً مغايرًا:

"حسنًا، أخبرني إذًا.. هل زارتكَ أمك مرة أخرى؟"

ازداد عجبي وسألته:

"ألست قائد تلك المنظمة السرية التي احتجزتموني فيها؟ ألا تستطيع سماع أفكاري؟"

ابتسم وقال:

"ليس بوسعي فعل ذلك للأسف.. ليت الأمر بهذه السهولة ولكن الأمور لا تسير على هذه النحو. ليس بوسعي تبيُّن ما في عقلك إن لم تخبرني به أنت."

تنهدت ولم أطمئن بعد إلى كونه لا يكذب بشأن عدم قدرته على سماع أفكاري. سألني:

"كيف حالك يا سليم؟ أنت لم تجب على أي من أسئلتي بَعد."

لم أتفوه بحرف ووجهت وجهي لأرضية المكتب، فتابع الطبيب:

"أخبرني قليلاً عن ذلك الشيطان" سألته في توجس:

"ماذا تريد أن تعرف عنه؟"

فقال:

"أخبرني ما تشاء؛ فكُلِّي آذان صاغية"

تذكرت أنه عليَّ أن أخبره بضرورة تسليمي للشرطة، وأني إن لم أفعل فسيعاقبني الشيطان إلا أني بقيت صامًتا. لاحظ الطبيب شرودي وقال مشجعًا إياي على الحديث:

"ما بكَ يا سليم؟ لا تخشَ شيئًا وأخبرني عما يريدُه منك ذلك الخبيث" فقلت:

"لا أعلم"

اعتقدت بأني ميِّتٌ لا محالة سواءً قتلني الشيطان أو لم يفعل إلا أني مع ذلك لم أتفوَّه بحرفٍ. سألني الطبيب:

"إذًا فلماذا أنتَ حزينٌ هكذَا؟"

دفنت وجهي بين كفي وشرعت في بكاءٍ مَريرٍ. ماذا عساي أُخبره؟ إن خوفي يأبى أن يترك لي فرصة للحديث، ويأبى كرهي للشفقة ولاسترعاء الاهتمام أن يدعني أفصح عن معاناتي. قال الطبيب محاولاً التهدئة من روعي:

"اهدأ يا سليم.. ثق بي، سنجد حلًّا ما.. لن يدوم ذلك الوضع طويلاً. أتذكر ما قلته لك سابقًا عن استحالة بقاء شيء على حاله؟"

أومأت برأسي وبدأت أهدأ بعض الشيء. وحين اطمأن الطبيب إلى سكون جأشي قال:

"والآن أخبرني، لماذا توقفت عن تناوُل أدويتك؟"

قلت له:

"لم أعد بحاجة إليها"

فسألني:

"أهكذا تعتقد؟"

فأومأت برأسي. تنهَّد الطبيب وقال:

"ولكن، هذا غير صحيح بالمرة"

سألته:

"ولِمَ لا؟"

فقال:

"ألا ترى أن إيقاف تناوُل الدواء هو السبب في انتكاستك تلك؟"

هززت رأسي نافيًا ثم قلت:

"لا، لا أعتقد بأن إيقاف الدواء التافه هو السبب فيما أعانيه الآن."

قال وقد بدا على وجهه الامتعاض:

"هذا الدواء الذي تدعوه تافهًا هو ما أبقاك على قيد الحياة إلى الآن. وبما أنك أوقفته فأنت تعرض حياتك للخطر."

لم يسبق لهذا الطبيب أن كان صريحًا معي إلى هذا الحد من قبل، لم يسبق له أن تحدث بمثل هذه اللهجة الشديدة. لقد تغيَّر كثيراً ولا أدري إن تم استبداله بشخصٍ مُختلف هو الآخر. ولكن، أليس هو قائد المنظمة السرية فكيف تم استبداله؟ هذا غير منطقيٍّ أبدًا! قال الطبيب:

"سليم، إن لم تعد لتناول أدويتك من جديد فسأضطر آسفًا لإيداعك المشفى من جديد."

فقلت وقد أصابني الهلع:

"لا! ليس مجددًا! أرجوك ألا تفعل! لقد سئمت ذلك السجن القاسي."

قال الطبيب:

"المشفى ليست سجنًا يا سليم.. نحن نحاول مساعدتك بكل ما نملك من قوة، وهدفنا بعيد كل البعد عن تعذيبك. أفكارك هي ما يعذبك."

قلت غاضبًا في تحدٍ:

"أفكاري لا تعذبني أبدًا! أنتم من تفعلون!"

أشار الطبيب إلى رأسي قائلاً:

"ها هي ذي تتكلم بدلاً منك، ثم تعود أنت لتدافع عنها."

بدا كلامه منطقيًّا للغاية. قال الطبيب:

"عدني أن تتناول الدواء."

أومأت برأسي على مضض دون أن أنطق بكلمة. قال الطبيب مبتسمًا:

"حسنًا، سأستدعي والدك الآن وأخبره بما اتفقنا عليه."

وبالفعل استدعى الطبيب والدي وأخبره بما توصلنا إليه وطلب منه أن يحرص على تناولي الدواء أمام ناظريه.

***

عدنا إلى المنزل، واضطررت لتناول الدواء أمام عيني والدي؛ فقد كانت تلك رغبة الطبيب. عزمت على تناول الأدوية وعلى عدم إيقافها من تلقاء نفسي مجددًا؛ علَّ الوضع يتحسن بعض الشيء. كنت آمل أن يغدو الوضع أفضل قليلاً سواء كان ذلك بالدواء أو بدونه. حاولت ترتيب غرفتي والخروج لممارسة الرياضة لبعض الوقت؛ علِّي أتلهى عن بعض أفكاري السوداء المزعجة. لم أفلح في ذلك كثيرًا رغم كل ما فعلت. ربما نسيت أفكاري لوقت وجيز إلا أنها كانت تعود لتطاردني بين الفنية والأخرى ولم تختفِ تمامًا. ثمة أمر لم أفهمه تمام الفهم، لماذا كان ذلك الشيطان يزورني أكثر مما كانت تزورني أمي؟ ألم يعد قطبا الخير والشر متوازنين على الإطلاق؟ يا له من أمر محزن! تذكرت كلمات الطبيب: إن أفكاري هي ما يعذبني. إلا أني مهما حاولت تجاهلها فإني أفشل في ذلك فشلاً ذريعًا. تبا لتلك الأشباح التي تسكن رأسي! تبًّا لذلك الصخب الذي يتردد صداه في دماغي! بذلت ما بوسعي لتخطي الحال المتردية التي وصلت إليها إلا أن جهودي لم تكلل بالنجاح المطلوب فشعرت باليأس وخيبة الأمل. وددت لو أتخلص من حياتي البائسة ومن تبعاتها المؤلمة. لا بُدَّ أن والدي سيحزن كثيرًا لفراقي ولا أدري إن كان ينبغي لي فعل هذا به. بالتأكيد لا يجدر بي فعل ذلك؛ فهو لن يحتمل فراقي! ولكن.. ألست أمثل عبئًا ثقيلاً عليه؟ لا أدري كذلك إن كنت سألحق بأمي أم لا. نظرت إلى علبة الدواء على الطاولة المجاورة لسريري وتمنيت لو أبتلع كل ما بداخلها من أقراص دفعة واحدة؛ علي أتخلص من ألمي. قررت تنفيذ مخططي الشيطاني.

فتحت العلبة وسكبت الأقراص كلها في يدي ثم هممت بابتلاعها إلا أني سمعت أحدًا يطرق الباب فجأة. لا بُدَّ أنه والدي! ألقيت بالأقراص على الأرض من فرط المفاجأة بدلاً من أن أعيدها إلى مكانها. وحين دخل أبي، وجد الأقراص مبعثرة على الأرض فسألني:

"ماذا فعلت يا سليم؟"

فقلت محاولا تبرير موقفي:

"لقد انسكبت الأقراص على الأرض رغمًا عني."

لم يبد مقتنعا بتفسيري إلا أنه قال:

"كن حذرًا في المرة المقبلة، ولا تسكب الأقراص من جديد."

أعتقد أنه لم يصدقني إلا أني لم أجد طريقة سوى تلك لأبرر بها فعلتي النكراء. ربما اعتقد أني ألقيت بالأقراص عمدا لكرهي تناولها ولغضبي إزاء ما أمر به الطبيب. قال أبي:

"والآن رتب هذه الفوضى واجمع كل الأقراص حالاً بينما أقوم بتحضير طعام العشاء."

لم أرغب في تناول الطعام إلا أني خشيت أن أخبره بذلك؛ إذ يكفيه ما سببته له من إزعاج ببعثرتي الأقراص. ترى، هل سأموت إن ابتلعت جميع الأقراص؟ هل سينتهي كل شيء أم أني سأضاعف معاناتي فحسب؟ دارت بخلدي تلك الأسئلة بينما كنت ألملم الفوضى التي أحدثت. دلف أبي إلى الغرفة، ووضع صينية الطعام على الطاولة قائلاً:

"احرص على ألا تحدث المزيد من الفوضى يا سليم."

كنت شارد الذهن بعض الشيء إلا أني سمعت ما قال. كنت أفكر فيما سيحلّ

بأبي إن انتحرت. لم أرد أن أنتحر كي لا أسبب له مزيدًا من الألم؛ فيكفيه ما عاناه بسببي. تكفيني الفوضى التي سببتها ولا أرغب في إثارة المزيد من الفوضى في حياته. تمنيت للأسف أن يرحل قبل أن أقرر الرحيل، ويبدو أن الزمن قرر أن يستجيب لرغبتي. لم أندم على أمنية في حياتي بقدر ما ندمت على تلك الأمنية. سقط أبي من فوره على الأرض وقد أصيب بالشلل التام فلم يعد قادرًا على الحراك أو الكلام. طلبت سيارة إسعاف؛ فقد خشيت بشدة أن أفقده كما فقدت أمي. أصبت بالهلع الشديد وكدت أفقد عقلي. لم أعرف عن الإسعافات الأولية سوى أنه عليَّ أن أتفحص نبضَ وتنفُّس المصاب. أسرعت بفعل ذلك فوجدت قلبه لا زال ينبض ورئتيه لم تتوقفا عن العمل بَعدُ. انتظرت قدوم الإسعاف بفارغ الصبر؛ فوالدي لم يلفظ أنفاسه بعد. وصلت سيارة الإسعاف بعد عشر دقائق من طلبي إياها، وأسرع المسعفون إلى داخل المنزل. كنت أصرخ بوالدي المطروح أرضًا:

"أبي! ما الذي جرى لك؟! أبي.. أجبني أرجوك!"

نسيت في تلك اللحظة أمر استحالته إلى شخصٍ غريبٍ وأخذت أنادي عليه إلا أنه لم يستطع الرد أبدًا. كانت عيناه مفتوحتين وأظنه كان يبصرني كما كان يحاول الكلام إلا أنه عجز عن ذلك. صرخت به مجددًا:

"أبي! لا تتركني أرجوك!"

سألني المسعفون عما حدث إلا أني لم أدرِ بما أجيبهم؛ فقد كنت في حالة يرثى لها. أبعدني المسعفون عنه، وأسرعوا بحمله إلى سيارة الإسعاف تمهيدًا لنقله إلى المشفى. وحين ركبنا سيارة الإسعاف، كان الوقت يمضي ببطءٍ شديدٍ. ظننت المسافة طويلة جدًّا رغم قصرها، وظننت الطريق مزدحمة رغم خوائها تقريبًا من السيارات. وحين وصلنا إلى المشفى، نقل الأطباء والدي إلى العناية المركزة؛ إذ تبيَّن أنه أصيب بجلطة في دماغه. كنت أسأل الأطباء عما إن كان سيتعافى أم لا فكانوا

يخبرونني بأنهم لا يستطيعون التكهن بأي شيء. كنت أرجوهم أن ينقذوه؛ إذ لا أستطيع الحياة بدونه. سألني الطبيب عمَّا حدثَ قبيل الواقعة وعما إن كان والدي يعاني من أي أمراض أو يتناول أي أدوية وعما إن كان يتعرض باستمرار لضغوط نفسية. لم أعلم ما عليَّ قوله فللأسف لم أكن أعرف الكثير عن والدي ولم أكن أهتم بشؤونه كثيراً. لم أستطع المكوث إلى جواره وإنما كنت أشاهده من خلال الزجاج العازل في أوقات الزيارة. كنت أشعر بالذنب الشديد وتمنيت لو أتحدث إليه لمرة واحدة بعد. تمنيت لو أستطيع إصلاح ما أفسدَتْه يداي. ليتني أستطيع ترميم ما انكسر! كنت على يقين مَن أن ما فعلته من محاولة انتحار هي ما أوصله إلى هذا المكان على تلك الحال السيئة للغاية. بالتأكيد لم يقتنع بتبريري السخيف بأن الأقراص سقطت أرضًا رغمًا عني، بالتأكيد كان يعلم بعزمي ابتلاعها دفعة واحدة! أنا السبب في كل ذلك، ولن أسامح نفسي ما حييت! كنت أشاهده متألمًا وخشيت أن يتركني. لقد عانى كثيراً بسببي، واليوم يوشك على الموت بسبب تصرفاتي الحمقاء! وفي يومٍ ما، جلست إلى جوار سريره ثم أمسكت بيده وأخذت أحدثه عله يسمعني. قلت:

"أبي، هل تسمعني؟ سامحني يا أبي.. أرجوك سامحني يا عزيزي."

وضعت يده صوب فمي وقبَّلتها ثم انسابت دموعي عليها، تابعت:

"أبي، هل سامحتني؟ أعتذر عن كل ما بدرَ منِّي وأرجو أن تغفر لي ما قد سلفَ. أبي، سيكون كل شيء على ما يرام. أنت قوي وبإمكانك تجاوز محنتك! ستشتري لي الحلوى من جديد وسنتناولها معًا. آسف يا أبي! آسف فأنا عاجز عن مساعدتك في محنتك بينما كنت تحاول دائمًا انتشالي من معاناتي."

انهرت باكيًا؛ فقد اعتقدت أن تلك ستكون المرة الأخيرة التي أحدثه فيها قبل أن يدفن تحت التراب. لم يخب ظني كثيراً؛ فقد وافته المنية في اليوم التالي. قضى

والدي ثلاثة أيام في المشفى قبل أن يفارق الحياة في اليوم الرابع. ليتني كنت أكثر لطفًا مع والدي! ليتني أستطيع قضاء لحظة واحدة بعد برفقته إلا أن الأوان قد فات! لقد استراح والدي من هذا الولد العاق الناكر للجميل.

***

دفن أبي في المقابر الخاصة بعائلتنا، وعدت بعد دفنه إلى المنزل. لم يتكلف أحد الجيران عناء السؤال عنا طيلة الثلاثة أيام التي قضاها والدي في المشفى؛ فربما لم يلحظوا غيابنا. ظل هشام إلى جواري في الأيام التي أعقبت الحادثة. ذلك الذي نعته بالكذاب لم يتخلَّ عني للحظة واحدة. لقد بلغ مني الحزن مبلغًا، وكتم اليأس أنفاسي فغدت ضحلة ومتعبة. كنت أشعر بشيء ثقيل يجثم على صدري وكأنه أكوام من الصخور أو أطنان من الحديد. لم أعد أرتب غرفتي ولم أعد أمارس الرياضة. كنت أبكي بحرقة طيلة الوقت لدرجة أنني سألت نفسي: إلى متى ستظل غارقًا في البكاء؟ إلى متى سيبقى الحزن يسيطر على كيانك ويجعلك عاجزًا حتى عن القيام من فراشك؟ إلى متى ستبقى مستسلمًا لمعاناتك؟ قلت لهشام يومًا:

"إنه خطئي! أنا السبب فيما حدث لوالدي؛ فأنا من تمنيت أن يرحل!"

فقال:

"هون على نفسك يا سليم.. إنه أجله ولم يكن بوسعك فعل شيء حيال ذلك."

قلت:

"بل أنا من قتلته بمحاولتي الانتحار.. لقد بلغ به الأسى مبلغًا حتى أرداه قتيلاً حين رأى ابنه الوحيد يُقدِم على قتل نفسه!"

قال هشام:

"كف عن جلد ذاتك يا سليم؛ فهذا لن يعيد ما مضى بل سيزيد حالك سوءًا"

كنت أبكي في صمتٍ، فتابع هشام:

"ستنقشع الغيوم يا سليم.. ستشرق الشمس يومًا ما. الحزن لا يدوم يا عزيزي فلا تبالِ بالجراح التي ستلتئم عما قريب"

قلت بين دموعي:

"لقد غدوت وحيدًا يا هشام. قتلت أمي سابقًا، والآن قتلت أبي حسرة عليَّ! أي نوع من الوحوش أنا؟!"

قال:

"وأين ذهبت يا سليم؟ أنت لست وحيدًا؛ فأنا هنا إلى جوارك.. ولكن ماذا تعني بأنك قتلت أمك؟"

استدركت بسرعة وقلت:

"دعك من هذا؛ فأنا أهذي فحسب."

ابتسم هشام وقال:

"لا عليك.. والآن أرجوك أن تتناول شيئًا ما."

قلت:

"لا أريد، لم تعد لدي أدنى شهية للطعام."

كرر هشام طلبه قائلاً:

"أرجوك يا سليم."

هززت رأسي رافضًا طلبه إلا أنه لم يستسلم وقال:

"سأعود من فوري"

ذهب هشام إلى المطبخ وأحضر شطيرةً ثم عاد وأعطاني إياها قائلاً:

"هيَّا، تناولها.. لقد أعددتها خصيصًا لك."

تناولت بعضًا منها بصعوبة بالغة كي لا أحرجه. تمنيت لو أودع يأسي للأبد وأن أطارد أحلامي التي تخليت عنها منذ زمنٍ بعيد. تمنيت لو أعيد حلمي للأمان. تمنيت لو أرسم حياة جديدة بريشتي الخاصة، وأن أصبغها بالألوان التي أحب، لا تلك التي اختارها لي الحزن. وددت لو أرسم حياتي كما أريدها أن تكون. تمنيت لو أمحو كل آلامي بممحاة. ليت الألم يختفي للأبد! ليتني أستطيع تجاهُل الصخب في رأسي! هشام لن يبقى إلى جواري إلى الأبد؛ فأنا أعلم يقينًا أني سأهيل عليه التراب هو الآخر يومًا ما. سأشهد جنازته وأبكي دون أن أجد من يواسيني. وددت لو أموت قبل حلول هذا اليوم الأسود المشؤوم.

***

ذهبت في اليوم التالي لزيارة قبر أمي. عرضَ عليَّ هشام أن يذهب معي إلا أنني اعتذرت منه؛ إذ رغبت في الذهاب وحدي. كان هناك شيءٌ ما ينبغي عليَّ التأكد منه إلا أني لم أشأ أن أخبره بماهية هذا الشيء. أردت أن أعرف ما إن كنت قد قتلت أمي في الغابة حقًّا أم أنها ماتت منذ سبع سنوات كما يقولون. إلا أن كونها ماتت حين كنت في الحادية عشرة من عمري لا ينفي أني قتلتها ولكن معرفة الحقيقة ستمنحني تصورًا أفضل لما حدث حينها؛ فقد أتذكر شيئًا ما. قد أعرف كذلك ما إن كانوا يخدعونني بشأن وقتِ وفاتها أم أن كلامهم يحمل في طياته بعض الصدق. وحين وصلت إلى هناك، أخذت أبحث بجِدٍّ عن تاريخ الوفاة. لم يطل بحثي؛ فسرعان ما وجدته. كانت دهشتي عارمة حين قرأته. كانت الكتابة تشير إلى الخامس عشر من شهر ديسمبر لعام 2009. إنهم محقون بشأن التاريخ! لقد ماتت أمي منذ أكثر من سبع سنوات. ولكن.. هل قتلتها آنذاكٍ ثم نسيت فعلتي؟ عصفت بي الظنون، ولم أستطع زحزحة الفكرة المتمثلة في قتلي لأمي عن دماغي المسكين.

كان جزء ما بداخلي لا يريد تصديق تلك الحقيقة المرة. كان ذلك الجزء يخبرني بأني سأجد أمي لا محالة مهما طال الزمان. وددت لو أصدق أني لم أقتلها؛ عل ذلك يمنعني من إيقاع الأذى بنفسي ويغيثني من شعور الذنب المدمر. لا تخشي شيئًا يا أمي؛ فلا أحد يمكنه إلحاق الأذى بك بعد الآن. تذكرت بِركة الدماء ووجه أمي الشاحب وملمس يديها الباردتين فأصابني ذلك بالحزن الشديد. ترى من سأفقد بعد والدي؟ كان لدي شعور قوي بأن هشام سيكون التالي. حاولت تكذيب ذلك الشعور دون جدوى. أحسست بأن نهايته غدت وشيكة ومحتمة رغم افتقاري إلى الأدلة التي تثبت ذلك. تمنيت لو أبطئ من دوران عجلة الزمان. ليتها تتمهل قليلاً؛ فقد دهست أحبتي ولا أريدها أن تدهس المزيد منهم! بل ليتها تدور للخلف فأستعيد أحبائي الذين لم أعد قادرًا على قضاء وقت إضافي برفقتهم. أريد قليلاً من الوقت بعد! لقد انتهى أمرهم بينما لا أزال أنا في حلبة النزال. أتوق لليوم الذي تنتهي فيه حياتي أنا الآخر رغم خوفي من حلوله؛ فأنا لم أعد أستطيع احتمال المزيد من الأوجاع. كنت آمل أن يغدو عقلي أكثر هدوءًا؛ فأنا لا أطيق مزيدًا من الضوضاء! ساعدني هشام كثيرًا؛ فكان يقرأ لي الكتب ويجلب لي الطعام. ندمت على كل حُكمٍ مجحف أصدرته بحقه، واعتقدت بأنني لم يعد لي سواه. بذلت جهدًا كبيرًا في استعادة نشاطي وممارسة حياتي على نحو شبه طبيعي فنجحت أخيرًا. عرض عليَّ هشام أن أبحث عن وظيفة لأشغل بها وقت فراغي خصوصًا أننا في العطلة الصيفية فامتثلت لرغبته وسرعان ما وجدت وظيفة في مكان ما. لم تكن الوظيفة جيدة بالقدر الكافي إلا أنها كانت كفيلة بشغل قدر كبير من وقتي؛ فكنت أغادر المنزل في الصباح الباكر ولا أعود سوى وقت غروب الشمس. شغلتني أمور العمل بعض الشيء عن التفكير في مشكلتي إلا أنني لم أنسَها تمامًا. ولكني عددت ذلك تقدمًا. كنت أنهك نفسي في العمل تمامًا حتى لا أدع لعقلي فرصة للشرود وللتفكير فيما لا أرغب في تذكره. تبدلت حياتي بعض الشيء وغدوت أكتب مذكراتي يومًا

بعد يوم. ظننت أن الأمر سينجح هذه المرة وأني سأفلح في تجاوز محنتي. ظننتني سأغدو شخصًا ناجحًا إلى حدٍّ معقول واعتقدت أني سأمتلك المال الكافي لتدبُّر أمر نفقاتي القليلة نسبيًّا. ومع ذلك التحسن النسبي، تحسن مزاجي بعض الشيء وأفقت من كبوتي إلى أن جاء اليوم الذي تغيَّر فيه كل شيء للأسوأ.

لم أكن فعالاً للغاية في التواصل مع زملائي في العمل، ولم أستطع بناء علاقات جيدة معهم. فشلت في ذلك أيما فشل، ويبدو أن ذريعة فشلي كانت المرض. لطالما سخروا مني ومن طريقة كلامي وتصرفي كما قاموا بصد أي محاولة أقوم بها للتقرب منهم فآثرت البقاء وحيدًا في النهاية. آثرت أن أبقى حبيس دماغي على أن أكون ضحية تهكمهم المستمر. كانوا يسخرون من تصرفاتي رغم أنها لم تكن سيئة للغاية. كنت مرعوبًا أيما رعب من أن يزورني أحدٌ ممن يظنهم الآخرون خيالات في مكان العمل؛ فكيف سأبدو حينها إن ظن زملائي أني أحدِّث نفسي؟ ستغدو نظرتهم إليَّ أكثر سوءًا بالتأكيد. ساء الوضع أكثر؛ فقد اعتقدت بعد ذلك بأنهم يتآمرون ضدي وأنهم يشون بي إلى المدير ليقوم بطردي من العمل. وما رسخ اعتقادي هو أني لم أكن أملك الخبرة الكافية للتعامل مع صعوبات العمل نظرًا لكوني لم أعمل من قبل. وقد حدث ما كنت أخشاه؛ فذات يومٍ استدعاني المدير إلى مكتبه وقال:

"سليم، أنت تثير المشكلات بين زملائك، ولسنا بحاجة للمزيد من المشكلات؛ فلدينا ما يكفينا منها. لقد أوقعتنا في الكثير من الأزمات وعلاوة على ذلك، فأنت لا تحسن التواصل مع أقرانك. لدينا الكثير من الخسائر المالية الفادحة بسبب تصرفاتك الطائشة" لم أدرِ ما عليَّ قوله فاعتذرت منه عن تصرفات لم أدرِ حينها إن كنت قد قمت بها أم لا:

"أنا آسف."

قال في حزمٍ:

"أسفك لا يجدي أي نفع يا سليم ولن يصلح ما أفسدت. سأضطر لإقالتك إذ لست بحاجة لمجنونٍ يُسيء الظن بالآخرين في شركتي. أنصحك بأن تجد عملاً آخر، وأنصحك حينها بألا تفتعل الأزمات."

أومأت برأسي فقال:

"يمكنك الانصراف الآن.. سيصبح مرتبك جاهزًا بعد بضعة أيام. يمكنك حينها الحضور لتسلمه" لم يعبأ المدير بشكري نظير ما قدمته من جهود بل اكتفى بتأنيبي على ذنبٍ لم أقترفه.

عدت إلى المنزل متجهمًا بائسًا. لا بُدَّ أن اليأس سيستمر للأبد وأنه لن يفارقني ما حييت! لقد طفحَ الكيل! دخلت غرفة مكتبي وأخذت أحطِّم كل ما تطاله يدي، وأبعثر الأوراق على المكتب في كل مكانٍ. تناثرت قِطَعُ الزجاج المكسور على الأرض. جاء هشام على إثر الصوت، ولم يلبث أن دخل الغرفة حتى أصابت إحدى قطع الزجاج قدمه فصرخ متألمًا وقال:

"ماذا تفعل يا سليم؟ ما الأمر؟ لماذا تحطم كل شيء؟"

قلت:

"لقد طردت اليوم من عملي يا هشام! وعلل المدير ذلك بعدم قدرتي على التواصل مع أقراني. لن أفلح في شيءٍ أبدًا.. لن أفلح في شيءٍ!"

وهنا انهمرت دموعي وجثوت على ركبتي معلنًا فشلي وغير عابئ بما قد يصيبني من جروح في حال دخلت إحدى القطع الزجاجية إلى ركبتي. أخذت أنشج وأنتحب واقترب مني هشام وأمسك بيدي ليساعدني على النهوض ثم قال:

"لا تحزن يا سليم، ستجد عملاً خيرًا من ذلك عما قريب. أنت تملك مميزات تفوق تلك التي يملكها من هُم في مثل عمرك كذكائك الحاد مثلاً وسرعة بديهتك. وهذا هو بالضبط ما يبحث عنه الموظِفون، فلا تيأس إذًا."

قلت في حزنٍ:

"أنا لا أصلح لشيء يا هشام. لقد فشلت في كل شيء.. فشلت في علاقاتي وعملي وكل ما جربت القيام به. لقد انتهى أمري! ليتني أجد أملاً واحدًا أتشبث به إلا أنه ليس ثمة أدنى أمل" قال هشام مشجعًا:

"بل هناك أمل يا سليم وعليك ألا تفقده أبدًا. أنا أثق بك وبقدراتك. ستسير الأمور على خيرِ ما يرام، صدقني يا صديقي."

وددت لو أبصر بصيصَ نورٍ في نهاية النفق المظلم الذي أقبع فيه. عزمت على البحث عن وظيفة أخرى محاوِلاً لملمة شتات نفسي المبعثرة في كل مكانٍ. عزمت على أن أجعل والدي فخورًا بي فهو بالتأكيد يتطلع إليَّ من مكانٍ ما. ترى هل سيزورني مثلما كانت تزورني أمي؟ وحدها الأيام من تملك الإجابة.

***

ساءت حالتي المزاجية كثيرًا في الأيام التي تلَتْ فقداني لوظيفتي واعتقدت أني لا أصلح لأي عمل أبدًا؛ لذا فلم أعبأ بالبحث عن عملٍ جديدٍ. لم تنفك عني ذكرى موت والدي. يا لي من تَعِس! لقد رأيته يموت أمام ناظري، والأدهى أني قتلته حسرة على ابنه. لا بُدَّ أن والدي قد يَئِسَ من تغيُّر حالي للأفضل. تمنيت لو أستطيع تعويضه عن كل ما فعلته به إلا أن ذلك كان حلمًا بعيد المنال. لماذا لا أستطيع تحقيق أيٍّ من أحلامي يا ترى؟ وذات يوم، تفتق ذهني عن فكرة نكراء وعزمت على ألا يشعر أحدٌ بخيبة الأمل إزاء تصرُّفي هذه المرة. لن أكون عبئًا عليهم بعد الآن. أوصدت الباب بالمفتاح جيدًا كي لا يستطيع هشام ولوج الغرفة، وأمسكت بعلبة الأقراص التي كانت إلى جواري ثم فتحتها وسكبت جميع الأقراص في يدي. أردت أن أضع حدًّا للحزن الملازم لي فأخذت أتناول الأقراص واحدًا تلو الآخر إلى أن أنهيت كل ما كان في العلبة. إنها ليست صرخة لطلب النجدة كما قد يعتقد

الكثيرون ولست أريد أن أكون مثيراً للشفقة. ثمة رغبة قوية داخلي في إنهاء كل شيءٍ. لم أدرِ كيف سيكون مصيري إلا أني آمل ألا يكون سيئًا للغاية رغم أنه ثمة احتمال أن يكون كذلك. مكثت بعض الوقت غير مدرك تمامًا لما فعلت. لم أدرِ إن كان عليَّ إخبار هشام أم لا. ولم تكن لدي أدنى فكرة عما إن كنت سأموت بعد قليل. جلست في حيرة من أمري لبعض الوقت ثم شعرت بالغثيان وذهبت راكضًا إلى الحمَّام لأتقيأ. وهناك رآني هشام فسألني بنبرة يملأها الخوف والذعر:

"سليم، ماذا هناك؟ هل أنت بخير؟"

يبدو أنه قد أدرك بعدها أن خطبًا ما قد حدث فهرع إلى غرفتي ليجد علبة الدواء الفارغة ملقاة على الأرض فأحضرها إلى حيث كنت جاثيًا على أرضية الحمَّام وسألني في هلع:

"ما هذا يا سليم؟ بربك ماذا فعلت؟"

لم أستطع الإجابة؛ فقد كنت بالكاد أتنفس. كدت أختنق من فرط التقيؤ. بعد ذلك سمعت هشام يصرخ:

"سليم، هل تسمعني؟ سليم!"

كان ذلك هو آخر ما سمعت قبل أن أفقد وعيي.

أفقت بعد ذلك في سيارة الإسعاف فوجدتُهم قد وضعوا قناع أكسجين على وجهي ليتسنى لي التنفس. سمعت أحَدَ المسعفين يقول إنهم سينقلونني إلى المشفى تمهيدًا لإجراء غسيل معدة. وجدت هشام ماكثًا إلى جواري يبكي في صمتٍ، وددتُ لو أعتذر منه إذ ظننت أني لم أفكر سوى في نفسي ولم أفكر أبدًا في أنه قد يتألم لفقدي. ولكن، أنا لست أنانيًّا أبدًا! كل ما أردته هو الخلاص من ألمي ولم أتعمد تسبيب الأذى لمن حولي بل أردت أن أريحهم من عناء الاهتمام بي! حين لاحظ هشام كوني أفقت، نظر إليَّ بعينيه الدامعتين اللتين حملتا الكثير من العتاب وقال:

"لماذا فعلت بي ذلك يا سليم؟"

كنت أود قول أني لم أقصد إيذاءه أبدًا إلا أني لم أستطع ذلك بسبب القناع. أيمكن لهشام أن يكمل حياته بدوني؟ بالتأكيد يمكنه تدبُّر أمره! قد يشتاق إليَّ لبعض الوقت إلا أنه سيتجاوز الأمر؛ فالحياة لن تنتهي بانتهائي كما أخبرني أبي سابقًا. لن تتوقف للحظة واحدة كما لم تتوقف حين مات والدي.

حين وصلنا إلى المشفى، قام الأطباء بإقحام أنبوب في فمي تمهيدا لإجراء غسيل المعدة. كانت التجربة سيئة للغاية. ظننت أن روحي ستفارق جسدي أثناء إجرائها. كان عليهم تقييدي كي لا أتحرك. كنت عاجزًا عن الكلام وكنت أنظر لهشام مستجديًا إياه أن يجعلهم يتوقفون. كان هشام عاجزًا تمامًا عن مساعدتي فكان يمسك بيدي بينما يقول باكيًا:

"تحمّل قليلاً يا سليم! أرجوك، كن قويًّا!"

ثم قال بين دموعه الجمة:

"ابقَ معنا يا سليم، لا ترحل أرجوك!"

ندمت كثيرًا على ما سببته له من فزع ووددت لو لم أفعل ما فعلت. وبعدما أنهى الأطباء العملية، شرعت في البكاء. أخبرني أحدُ الأطباء فيما بعد بأن المسعفين حين وصلوا إلى منزلنا بعدما استدعى هشام سيارة الإسعاف، وجدوني ملقى على الأرض مغشيًا عليَّ وقد مكث هشام إلى جواري يبكي في عجزٍ، كان يرجو الأطباء مرارًا وتكرارًا أن ينقذوني. أخبرني الطبيب كذلك بأن قلبي كاد يتوقف بينما كنت في سيارة الإسعاف، وأن تلفًا خطيرًا قد أصاب قلبي وهو ما لا يمكنهم إصلاحه للأسف الشديد، وأني سأضطر لتناول المزيد من الأدوية طيلة حياتي كي أستطيع البقاء على قيد الحياة وهو ما أغضبني كثيرًا.

عدنا إلى المنزل بعد بضعة أيام قضيتها في المشفى. أعتقد بأن هشام كان حائرًا

فيما سيفعل بشأني. أعتقد بأنه لم يدرِ كيف سيتسنى له البقاء إلى جواري طيلة الوقت.. حتى وإن قام بطلب إجازة من عمله، ماذا سيحدث إن اضطر للذهاب إلى الحمَّام مثلاً أو لتحضير الطعام؟ وفي يومٍ ما، ذهبت معه لرؤية الطبيب. روى له هشام ما حدثَ وأنصت له الطبيب وقد بدا الحزن جليًّا في ملامح وجهه ثم غادر هشام الغرفة لينتظرني خارجًا. كنت مستعدًا لأسئلة الطبيب، وكنت قد جهزت أجوبتي مسبقًا. توقعت سؤاله الأول قبل أن يتفوه به:

"لماذا حاولت الانتحار يا سليم؟"

أجبت وكأنما أردد اسطوانة عكفت على حفظها:

"لأنني سئمت الحزن، لقد استمر الوضع البائس أطول مما ينبغي ولذلك قررت وضع حد له، ولا أعلم لماذا أنقذني هشام."

سألني الطبيب:

"أكان عليه أن يدعك تموت؟"

قلت في برودٍ:

"أجل، فأنا حر وأفعل ما يحلو لي. ليس لأحد سُلطة عليَّ ولا أدري لماذا هو متسلِّطٌ هكذا؟"

قال الطبيب:

"إنه يحبك يا سليم ولا يرغب في التسلط عليك. لو لم يكن يحبك لما فعل ما قد فعل."

قلت:

"لست بحاجة لحبه."

فقال الطبيب:

"كلنا بحاجة للحب يا سليم، ولا يمكننا العيش بدونه. ستستحيل الدنيا غابة إن لم يقدر الناس حياة بعضهم البعض."

طال صمتي؛ فلم أدرِ ما علي قوله إذ لم أتوقع أن يقول ذلك. ثم قطع الطبيب الصمت قائلاً:

"آسف يا سليم، ولكني سأضطر لإيداعك المشفى لبعض الوقت."

صرخت:

"لا! لن أسمح لكم بذلك!"

فقال:

"لا تكن عنيدًا يا سليم؛ فحالتك تستدعي دخول المشفى. قد تحاول الانتحار ثانية إن لم أفعل ذلك. قد لا تنجو هذه المرة!"

قلت بذات الغضب:

"لا أريد أن أنجو، ولا أريد كذلك من شخص مثلك أن يملي عليَّ ما أفعل. لا شأن لك بي!"

قال:

"أنا مهتم بك يا سليم وكذلك صديقك هشام."

قلت في تحدٍّ:

"لا تهتموا إذًا! لا أريد اهتمامكم ذاك!"

قال الطبيب وقد قبل التحدي:

"أتراك ستلحق بوالديك بهذا الشكل؟ أتظنهم سيكونون سعداء بما تفعل؟ أتعتقد أن عنادك سيوصلك إلى مصير جيد؟ أترى ذاك المصير خير من المكوث بالمشفى لفترة وجيزة ريثما تتحسن حالتك؟ أرجو أن تعيد التفكير في الأمر.. عمومًا، سأحضر صديقك إلى هنا علّنا نتوصل إلى اتفاق ما."

أومأت برأسي في ضجر ثم دلف هشام إلى الغرفة، وجلس على الكرسي المواجه لذاك الذي أجلس عليه. كان ينظر إليَّ وعيناه يملأها القلق فوجهت بصري للأرض؛ إذ ثمة شيء أخشى أن أبصره في عينيه ألا وهو الشفقة! بدأ الطبيب الحديث قائلاً:

"هشام، لقد تحدثت إلى صديقك وهو لا يرغب بدخول المشفى."

أومأ هشام برأسه في أسى ثم تابع الطبيب:

"لدي حلٌّ آخر.. يمكنك أن تحتفظ بعلبة الدواء بحوزتك وأن تناوله كل قرص في ميعاده المحدد، وأن تنزع كذلك من غرفته ومن المنزل كله إن استطعت كل شيء يمكن أن يؤذي به نفسه.. ما رأيك؟"

أومأ هشام برأسه وقد بدا وكأنما راق له الحل الذي اقترحه الطبيب. قال الطبيب:

"إنه حُّل مؤقت، أو بالأحرى بديل مؤقت لدخول المشفى. حاول كذلك ألا تتركه وحيدًا أغلب الوقت. يمكنك البقاء معه في المنزل إن كان هذا يناسبك."

قال هشام:

"إنه يناسبني."

أومأ الطبيب برأسه قائلاً:

"حسنًا، هذا جيد. وأخيرًا احرص على تناول سليم لأدويته، ورجاء عودا لزيارتي بعد أسبوع من الآن."

ناول الطبيب هشام الوصفة الدوائية قائلاً:

"تفضل.. لقد قمت بزيادة الجرعات قليلاً، لا تَنْسَ ما قلته لك يا هشام."

قال هشام:

"شكرًا لك."

فقال الطبيب:

"على الرحب والسعة.. سررت بمعرفتك. لا تنسوا زيارتي في القريب العاجل."

ثم التفت الطبيب تجاهي وقال محذرًا:

"إن تكررت المحاولة يا سليم، فلا مفر من دخولك المشفى."

أومأت برأسي على مضض. خرجنا من عند الطبيب، وبمجرد خروجنا قال هشام:

"أما آن لك أن تستفيق من غفلتك يا سليم؟"

لم أُعِرْه اهتمامًا أبدًا، ولم أرد على سؤاله رغم سماعي إياه. ظللنا صامتين طيلة الطريق إلى المنزل؛ فقد كنت أفكر فيما قاله الطبيب. هل أريد النجاة حقًّا أم أني أرغب بالبقاء في هذا المستنقع القذر الذي تسربت مياهه كريهة الطعم والرائحة إلى جوفي؟ هل سأمكث هناك حتى أموت غرقًا؟ ترى ماذا أريد؟ هل أكره الشفقة حقًّا أم أني أسترعي اهتمام الآخرين؟ هل أرغب دائمًا في أن أكون محور اهتمامهم ومحط عنايتهم؟ ولكن.. ما المشكلة في الحصول على الاهتمام؟ أليس من حقي أن أحصل على بعضه؟ عصفت تلك الأسئلة وغيرها بذهني إلى أن وصلنا إلى المنزل.

***

أمضيت الأيام التالية لزيارة الطبيب أتناول الأدوية في مواعيدها حين يناولني إياها هشام الذي قام بطلب إجازة من عمله ليمكث إلى جواري. قررت أن أكون فتى مطيعًا كي أتفادى دخول المشفى مرة أخرى. كنت أتناول الأدوية النفسية وتلك الخاصة بالقلب بانتظام رغم الأعراض الجانبية المزعجة. حاولت تحمُّل الوضع على مضض وكان هشام يحاول جعلي أتقبل ما آلت إليه الأمور. فكنت أجاريه حينًا وأنفجر فيه غاضبًا أحيانًا أخرى مدعيًا أنه لا يفهم أيًّا مما أشعر به. كان يصبر على آذاي ذاك بطريقة مبالغ فيها. لم أعهد ذلك الصبر سوى منه. لم يعد يسأل عن حالي سواه؛ فأقاربي وأصدقائي الآخرون لم يهتموا بالسؤال عن حالي منذ

زمنٍ طويلٍ. ورغم ذلك فقد حملته أكثر مما يسعه احتماله ولم أقدر أيًّا مما فعل؛ إذ غلبتني طباعي السيئة. كنت أحاول الاعتذار منه إبان بعض المرات التي أؤذي فيها مشاعره فيقول:

"لا عليك يا سليم، المهم هو أن تشفى."

فأسأله:

"ألست غاضبًا مني؟"

فيجيب برفقٍ:

"لا يا سليم، نحن أصدقاء وعلينا احتمال طباع بعضنا البعض ولا سيما تلك السيئة منها. أنا أقدِّر تمامًا ما تمر به وأعي جيدًا أنك تعاني إلى حدٍّ كبيرٍ."

ثم ناولني قصاصة جريدة مطوية كان محتفظًا بها في يده وقال:

"انظر، لقد وجدت وظيفة قد تناسبك. يمكنك أن تمارسها إلى جوار دراستك؛ فهي لن تشغلك عن الدراسة أبدًا؛ فعدد ساعات العمل محدود للغاية. إنها في معمل مجاور لمنزلك وبهذا لن تضطر لقطع مسافة طويلة للوصول إلى عملك كل يوم. أتوسم أنها ستكون خيراً من سابقتها." قلت رافضًا اقتراحه:

"لا أريد أن أعمل."

سألني مستغربًا:

"ولِمَ؟ ألم تكن حزينًا حين تركت وظيفتك الأولى في تلك الشركة؟"

فأجبت:

"بلى، ولكني أخشى الاحتكاك بالناس. أخشى سخريتهم مني وأن يعرفوا شيئًا عن مرضي."

قال هشام:

"مرضك لا يعيبك يا سليم.. أنت بطلٌ حقيقيٌّ."

قلت:

"أنا لست بطلاً يا هشام، أنا محض فاشلٍ هزمَهُ مرضه وتركه عاطلاً عن العمل وعن الحياة بأسرها فلا أكاد أغادر غرفتي.. طردت من عملي السابق بسبب المرض وأخشى أن أطرد من جديد للسبب ذاته."

قال هشام:

"يكفيك أنك أدركت مشكلتك يا سليم ولم تعد تنكرها، والخطوة التالية هي أن تتعلم كيف تواجهها بدلاً من الفرار منها."

قلت:

"لست أهلاً لمواجهتها يا هشام، أنا محض جبان ناكر للجميل؛ فقد قتلت والدي وحاولت قتل نفسي."

قال هشام:

"أنت لم تقتلهما يا سليم، لم تفعل ذلك أبدًا!"

فقلت وقد أزعجني عدم تصديقه لي:

"بل فعلت! صدقني؛ فأنا لا أكذب!"

قال هشام:

"لم أقصد تكذيبك وإنما أردت أن أقول أن عليك ألا تدع شعور الذنب يقتلك، وألا تدع خيالاتك ترديك أو تنقلك إلى مكانٍ قد لا ترغب بزيارته."

لم أدرِ ما عليَّ قوله فلزمت الصمت.. لقد كان على حقٍّ في بعضِ ما قال؛ فشعور الذنب يكاد يقتلني بالفعل. ثم تابع:

"والآن، لنفكر كيف سنستعد لهذه الوظيفة.. ما رأيك؟"

أومأت برأسي موافقًا؛ فقد كنت أحتاج للعمل ليس فقط لشغل الوقت وإنما لأشعر بكوني إنسانًا منتجًا ذا قيمة وبأني لست محض جمادٍ عديم الفائدة. لم أكن متأكدًا مما إن كنت أصلح للعمل ولكني كنت على استعدادٍ لخوض التجربة؛ فما أسوأ ما يمكن أن يحدث؟ ينبغي عليَّ المجازفة إن كنت أرغب بتحقيق شيءٍ ما. اعتقدت بأن جرأتي مبالغ فيها قليلاً؛ فالأمور قد تسوء كثيراً بالفعل ولكني لم أتراجع عن فكرة العمل؛ فقد كنت خجلاً من كوني عالة على هشام الذي قام بمد إجازته خشية أن يتركني وحيدًا. كنت كثيراً ما أعتذر منه لكوني عبئًا عليه فكان ينفي ذلك تمامًا ويخبرني بأنه سعيد بالبقاء إلى جواري، ويعلل ذلك بأن منزله قد تم طلاء جدرانه حديثًا وأنه لا يحب رائحة الطلاء. لذا فهو يفضل البقاء معي إن كان ذلك لا يزعجني. كنت أعلم بأن أيًّا من هذا لم يحدث.. فلم يقم أحد بطلاء جدران منزله وهو ليس سعيدًا برفقتي بل يشعر بالإلزام تجاه الاعتناء بي. لم أخبره بأيٍّ من ظنوني تلك.

***

مرت بضعة أيام قام فيها هشام بانتقاء ثوب يناسبني ثم أهداني إياه؛ كي أرتديه وقتَ ذهابي لمقابلة العمل. ذهبت بعد ذلك للتقدُّم للوظيفة التي طرحها وكنت قلقًا كثيراً بشأن الانطباع الأول الذي سأتركه لدرجة أنني لم أرد الذهاب إلى المقابلة، ولكني ذهبت في نهاية المطاف؛ إذ ينبغي علَّي متابعة التجربة حتى النهاية. مرت المقابلة بسلام، وسرعان ما قام الموظف بالاتصال بي لإعلامي بأني قبلت للوظيفة. وفي اليوم ذاته الذي قبلت فيه، ذهب هشام ليحضر لي هدية بعدما اطمأن إلى نومي. وحين عاد إلى المنزل، أيقظني برفقٍ وطلبَ منِّي فض غلاف الهدية. كانت الهدية هاتفًا خلويًّا؛ فقد كان هشام على عِلمٍ بأن الهاتف الخاص بي قد اهترأ، ولم تكن الأعطال تفارقه. أحضر لي هشام كذلك بعضَ الثياب كي يتسنى لي ارتداؤها حين أذهب إلى العمل؛ لأبدو بهيئة جيدة ولكي لا أشعر بالإحراج من ثيابي القديمة البالية. يبدو أن الطبيب كان محقًا بشأن حُب هشام لي. لم أعلم

كيف أشكره ولكني كنت ممتنًا كثيرًا لما فعله من أجلي. وفي اليوم الأول للعمل، ارتديت خير الثياب التي أحضرها لي هشام استعدادًا للذهاب إلى المعمل. وددت لو يشعرون بأني جدير ببقائي معهم. لم أستطع النوم لساعة واحدة في الليلة التي سبقت يومي الأول؛ فقد كنت قلقًا وعاجزًا عن إغلاق عيني رغم تناوُلي الدواء المهدِّئ. حاول هشام مساعدتي على النوم بشتى الطرق كصنع مشروب دافئ وتشغيل موسيقى هادئة إلا أن أيًّا من محاولاته لم تفلح في جعلي أنام. كنت متعبًا كثيرًا في اليوم التالي، إلا أن اليوم الأول مرَّ على ما يرام. تعرفت إلى الكثير من زملائي وتجاذبنا أطراف الحديث دون التطرق إلى الموضوعات التي تزعجني، إلا أنه كان ثمة شيء لا يريحني.

مرَّ أسبوع على بداية العمل، تعلمت فيه بعض الأشياء عن مجرياته وتوطدت فيه علاقتي بزملائي بعض الشيء. كان العمل الجديد يروقني بطريقة ما. لقد كان جيدًا على نحوٍّ ما وسيئًا على صعيدٍ آخر؛ فلم يكن العمل يتطلب الكثير من الجهد ولكن المشكلة كانت في ظنوني بالآخرين التي خالفَتْ ما يظهرونه من لطفٍ. كان هشام يوصلني بسيارته إلى العمل، فإن لم يفعل فإني أستقل سيارة أجرة. لم تكن المسافة التي تفصل المعمل عن منزلنا طويلة على الإطلاق؛ فهي لم تتجاوز كيلومترات قليلة.

مضت الأمور بشكلٍ جيدٍ إلى أن جاء اليوم الذي عُدتُ فيه من عملي مبكرًا. فوجئ هشام بعودتي؛ إذ لم يتوقع قدومي في تلك الساعة. قال:

"سليم؟! لماذا عدت مبكرًا اليوم؟ هل حدث خَطبٌ ما؟"

قلت:

"لا، لم يحدث شيءٌ أبدًا بل شعرت بالتوعك بعض الشيء فقررت العودة. ربما أصبت بالرشاح، هذا كل ما في الأمر."

نظر هشام إليَّ في غير تصديق لما قلت، فأشحت بوجهي عنه متفاديًا النظر في عينيه ثم قال: "اصدُقني القول يا سليم، ما الذي جرى؟"

قلت:

"صدقني؛ فهذه هي الحقيقة. لم يحدث ما يستحق الذِّكر. لمَ لا تصدقني؟ لقد أصبت بالرشاح فحسب فقررت العودة كي لا يتفاقم الوضع أكثر."

نظر إليَّ هشام نظرةً ذات مغزى فسألته:

"لمَ تنظر إليَّ هكذا؟"

فأجاب "لأني لا أصدق ما تقول؛ فأنا أعرف شكل وجهك حين تكذب يا سليم."

قلت غاضبًا:

"حسنًا، لقد تشاجرت مع المدير.. هل ارتحت الآن؟!"

سألني متعجبًا:

"هكذا بهذه السرعة؟ ولكن لماذا؟"

فقلت:

"لقد ذهبت لأخبره باعتقادي أن زملائي يتآمرون ضدي لأن نظراتهم لي لم تَبدُ مريحة على الإطلاق، فاتهمني بالجنون وطردني من مكتبه. لم أحتمل إيذاءه لكرامتي وإهانته لي وغادرت المعمل غاضبًا ثم عدت إلى هنا."

سألني هشام:

"وهل يبدو لك ما قلته معقولاً أصلاً؟"

صرخت به وقد تفجر غضبي أكثر:

"أتعني أنني مجنون؟"

فاستدرك قائلاً:

"أنا لم أقل ذلك أبدًا.. كل ما قصدته هو أنه عليك منحه فرصة ثانية وأن تعود إلى عملك؛ فأنت تحتاجه بلا شك. ومن المؤكد أن زملاءك لم يقصدوا إيذاءك، حتى وإن كانت نظراتهم تزعجك." قلت منزعجًا:

"وكيف تسنت لك معرفة ذلك يا خارق الذكاء أنت؟"

فأجاب "لأنه ليس ثمة ما يدل على ذلك. ربما لم يقصدوا ما فهمته؛ فلم يصدر منهم أيُّ تصرُّفٍ مؤذٍ حتى هذه اللحظة."

تأففت ولم أنطق بحرفٍ؛ فتابع:

"عُدْ إلى عملك يا سليم، ودَعْكَ من تلك الظنون التي ستودي بمستقبلك."

فقُلت:

"لا، لن أعود أبدًا!"

قال هشام:

"حسنًا، سنناقش هذا الأمر فيما بعد.. سأذهب الآن لتحضير الطعام؛ فلا بُدَّ أنك جائع."

ذهب هشام وجلست على السرير أفكر فيما قال. هل حقًّا أبالي بما إن أودت ظنوني بمستقبلي أم لا؟ لماذا أذهب إلى العمل وأتقاضى راتبًا غير مجزٍ إن كان مستقبلي لا يعني لي الكثير؟ اجتاحت الأسئلة ذهني فلم أجد جوابًا لأيٍّ منها. ربما أفصل من عملي من جراء ما فعلت، أو سيتم خصم بعض النقود على الأقل من راتبي الضئيل أصلاً. ماذا سأفعل؟ هل سأغدو عاطلاً عن العمل بعد أسبوعٍ واحدٍ فقط من ممارسته؟ دخل هشام لينتشلني من تساؤلاتي الجمة فسألته: "هشام، هل تعتقد أن زملائي من الممكن أن يحيكوا المؤامرات ضدي؟ فأنا أعتقد بشدة أنهم يدبرون مكيدة ما"

ثم همست له قائلاً:

"إنهم يسمعون أفكاري ويتنصتون عليها بلا أدنى شكٍّ، وقد يبثونها في المذياع فيسمعها المدير ويطردني من فوره!"

سألني هشام:

"أتذكر يا سليم أن تلك الظنون هي ما جعلك تفقد وظيفتك الأولى؟"

أجبت في حزنٍ:

"نعم، أذكر ذلك جيدًا."

قال:

"ألا يجدر بك أن تعدل عنها هذه المرة؟"

لم أتفوه بكلمة بل شردت ببصري بعيدًا. قال هشام مربتًا على كتفي:

"دعك من هذه الأفكار يا سليم، واجعل تركيزك منصبًا على عملك فحسب؛ فهو ما سيشغلك عنها."

سألته:

"هل ستتوقف الأفكار عن إزعاجي؟ لقد سئمت صوتها المرتفع!"

فأجاب:

"لا أدري يا سليم. كل ما يمكننا فعله هو أن نأمل ألا تعيق حياتك. حاول أن تجعل صوت إرادتك القوية يعلو على صوت تلك الأفكار التي تثير قلقك."

أومأت برأسي غير متأكد مما إن كانت لدي إرادة أصلاً. ليتني أتبين ذلك.

****

عدت إلى العمل في اليوم التالي وقضيت بضعة أيام على ذات الحال: أذهب إلى العمل في الصباح لأعود إلى المنزل في المساء لأنام ثم أستيقظ في اليوم التالي لأعيد الكرة من جديد. كنت أعود لأجد هشام قد انتهى من تحضير طعام العشاء فأجلس لتناوله برفقته التي كنت سعيدًا بها وممتنًا لها كثيراً. كان الوضع روتينيًّا إلى أبعد الحدود إلا أن حالتي المزاجية تحسنت بعض الشيء. كنت أتسامر مع هشام أحيانًا كثيرة، وشعرت لأول مرة منذ زمنٍ طويلٍ برغبة في الضحك. فكنا نتبادل النكات لننسى همومنا، ونسيت أمرَ التلف الذي وقعَ لقلبي وكان هشام يتجنب بدوره أن يذكرني به. كان حذرًا في حديثه معي ليتفادى مضايقتي وقد كنت ممتنًا لذلك في البداية إلا أني بعد فترة سئمت حذره وحيطته الدائمين. فقد كان كثيراً ما يقلق لأمور تافهة كتأخُّري في الحمَّام أو تأخُّري عن العودة إلى المنزل مثلاً. كنت أتعمد مضايقته أحيانًا فكنت أدلف إلى غرفتي وأغلق الباب خلفي بالمفتاح، فكان يقلق إزاء احتمالية إيذائي لنفسي رغم خلوّ غرفتي من أي شيء يمكن أن أؤذيها به؛ فقد كان يخشى أن أبتكر طريقة ما لتخطي احتياطاته المبالغ فيها. كان هشام يغضب كثيراً إزاء ما أفعل ولكني كنت أعتذر منه في كل مرة وأعده بألا أكررها ثم أعود لأخلف وعدي.

وفي يومٍ من الأيام، كنت وهشام في الغرفة التي اعتاد أن ينام فيها، وأردت ممازحته بعض الشيء فأخذت علبة الدواء الخاصة بي التي احتفظ بها بحوزته طيلة الفترة الماضية، وفررت راكضًا إلى غرفتي ثم دلفت إلى الداخل وأوصدت الباب بالمفتاح. أخذ هشام يطرق الباب بجنون قائلاً: "افتح الباب يا سليم! كف عن المزاح من فورك! هذا ليس مضحكًا أبدًا! توقف عن هذا الآن وافتح الباب!"

كنت أضحك بشكل هستيري بينما كنت أسمع صوته الفزع قادمًا من خلف الباب. كنت سعيدًا بكوني تجاوزت محاذيره. تابع هشام الصراخ في ذُعرٍ:

"افتح الباب يا سليم! بالله عليك! أنا لست أمازحك!"

فتحت الباب أخيرًا بعدما حققت غايتي ألا وهي تجاوز الحدود التي رسمها لي. هُرِع هشام إلى الداخل ليجدني مستغرقًا في الضحك فقال غاضبًا:

"سليم! ما الذي دهاك بحق السماء؟! لماذا تفعل هذا بي؟! لا يحق لك إثارة قلقي إلى هذا الحد!"

كنت مستمرًا في الضحك فقال وقد استعر غضبه أكثر:

"ليتك تخبرني ما المضحك في الأمر!"

لم أعره اهتمامًا أبدًا فصفعني قائلاً:

"أفِقْ يا سليم! ستخسر كل شيء! ستخسر وظيفتك وأصدقاءك ودراستك وحياتك نفسها تمامًا كما خسرت أهلك!"

كانت تلك هي المرة الأولى التي تمتد فيها يدُ هشام لتضربني. كان وَقْع كلماته في نفسي أشد بأسًا من وقع الصفعة نفسها. لقد خسرت أهلي بالفعل، وأيما خسارة! لقد قتلتهم! تابع هشام:

"ألا تخجل من نفسك؟ ثمة كثيرون يحلمون بحياة كتلك التي تحياها فكف عن التذمر! إنهم يتمنون لو يحظون بحياتك ولو للحظات قليلة فحسب وها أنت ذا ترغب في خسارتها! يا لَهُ من أمرٍ مخزٍ! ألا تخجل من طريقة تفكيرك الساذجة تلك؟!"

قلت غاضبًا:

"لا! يمكنهم أن يحظوا بحياتي إن أرادوا؛ فأنا لا أريدها ولا أشاء أن أحتفظ بها لدقيقة واحدة بعد."

قال:

"ألا يزعجك كونك مستسلمًا؟"

فقلت:

"لست مستسلمًا ولا أسمح لك أن تتهمني بالاستسلام! أنا أفعل ما بوسعي وأتحمل ما يفوق طاقتي حتى وإن لم تبصر ذلك لكونك أعمى البصيرة! أنا أحمل ما يعجز عن حمله جميع البشر مجتمعين، أنا أحمل أطنانًا من الهموم فوق ظهري ولا أنتظر أن يأتي شخصٌ مثلك لينعتني بالمستسلم!"

قال:

"رائع! رائع أيها البطل الهمام! ها أنت ذا غدوت عاطلاً عن العمل من جديدٍ؛ فقد ذهبت إلى المعمل اليوم لأسأل المدير عن حالك فأخبرني بأنك أفسدت كل شيء، وأنه لا يسره أبدًا أن تعمل في معمله. أتسرك تلك الحال؟ أيسرك أن تبقى عالة على غيرك؟"

لم أفهم ما قال؛ فقد ظننت أن العمل يسير على ما يرام وأن علاقتي بزملائي قد تحسنت ولم أعد أثير المشكلات. صرخت به قائلاً:

"اصمت! ليس من حقك أن تقول هذا! وأنا لا أنتظر من أحمق مثلك مثل هذه الكلمات! إن كنت تشعر بأني عالة عليك، فارحل من فورك! ولا تقلق؛ فسرعان ما سينفِّذ الشيطانُ وعيدَهُ وسترتاح مني للأبد. والآن اذهب!"

قال هشام في عدم فهم بدا ظاهرًا على وجهه:

"أي شيطان يا سليم؟ لم أفهم عمَّا تتحدث"

قلت:

"ولن تفهم أبدًا!"

فقال:

"ما الأمر يا سليم؟ أنا لم أُرِد سوى مصلحتك"

قلت في حزمٍ:

"اذهب ودَعْ مصلحتي وشأنها!" قال هشام معلنًا استسلامه "حسنًا، سأرحل يا سليم ولكن عدني بألا تؤذي نفسك."

قلت في ضجرٍ:

"لا شأن لك بما سأفعل."

رحل هشام وقد شعرت بأن لقاءنا ذلك سيكون الأخير.

***

مضت بضعة أيام على رحيل هشام. لم أدرِ إن كان يجدر بي أن أسعد بالخلاص من تسلطه أم أنه عليَّ أن أحزن لرحيل أعز أصدقائي. توقفت عن تناول أدوية القلب؛ فقد كانت تصيبني بالدوار الشديد، كما لم أعبأ بما إن انتهت حياتي من جرَّاء توقُّفي ذاك؛ فأنا أريد لها أن تنتهي أصلاً إذ لم أعد أطيقها. ولبضعة أيام لم أتناول أدوية القلب ولو لمرة واحدة إلا أن حياتي لم تنتهِ وهو ما غاظني كثيراً. عكفت مع ذلك على تناول الأدوية النفسية كي لا تصيبني انتكاسة جديدة ترغمني على دخول المشفى. لم أهتم بإخبار هشام بأمرِ توقُّفي عن تناول أدوية القلب، وسرعان ما توقفت عن تناول الأدوية النفسية كذلك؛ فقد سَئمتها أيضًا ووددت لو أعيش حياتي على نحوٍ طبيعيٍّ لبعض الوقت دونما تدخُّل من الأدوية. أردت ألا أدعها ترسم لي حياتي بعد ذلك الوقت فأنا من سيتكفل بذلك. لقد غدوت عاطلاً عن العمل ولكني كنت سعيدًا؛ إذ لم أعد عالة على أحد فقد كنت أقتات على الفتات ولم أعبأ بشراء ثياب جديدة؛ فلم أكن بحاجة إليها. لم يعد أحد يهتم بتنظيف ثيابي المتسخة ولم أعبأ بذلك أيضًا فتراكمت فوق بعضها البعض. لم أعد أملك الطاقة الكافية لتحضير الطعام أو للاستحمام وتردى مزاجي كثيراً. ظللت على

هذه الحال لأسبوع إلى أن حدث ما أردته حين توقفت عن تناول أدوية القلب، أزمة قلبية! أخبرني هشام بأنه جاء لزيارتي ذات يومٍ فلم أفتح الباب، فأصابه القلق وقام بتحطيم الباب وطرحه أرضًا بمساعدة بعض الجيران فوجدني ملقى على الأرض في غرفتي وهو لا يدري كم بقيت كذلك. قام باستدعاء سيارة الإسعاف التي حملتني للمشفى. وهناك أخبره الطبيب بضرورة خضوعي لعملية خطيرة قلَّما يكتب لأحد النجاة منها. وافق هشام على مضض. وفي اليوم التالي من إقامتي بالمشفى، خضعت للعملية التي استغرقت نحو ثماني ساعات. أخبرني الطبيب فورَ إفاقتي بأن صديقي كان قلقًا عليَّ كثيراً، وكان يبكي بحرقة طيلة الوقت الذي قضيته في غرفة العمليات فسألته أين يكون فأخبرني أنه ينتظرني في غرفتي وأنه ستتسنى لي رؤيته فورَ صعودي إليها.

وحين صعدت إلى الغرفة، وجدت هشام جالسًا هناك بالفعل وقد دفن وجهه بين كفيه. وحين انتبه لقدومي، رفع بصره إليَّ وقال:

"حمدًا لله على سلامتك يا سليم."

كانت نبرة حديثه آلية وخاوية من أية مشاعر على غير عادته. أيقنت أنه لا يزال غاضبًا منِّي وأنه يحاول إخفاء غضبه بانتحال شخصية الرجل الآلي. قلت له:

"أنا آسف يا هشام."

ردَّ كعادته ولكن بنبرة تخلو تمامًا من الودّ:

"لا عليك يا سليم، المهم أنني اطمأننت عليك. والآن أرجو المعذرة.. عليَّ المغادرة؛ فلدي عملٌ أقوم به."

ترى ما الذي جرى له؟ أتراه يعاقبني على ما بدرَ منِّي؟ سألته متلهفا لأن يستعيد شخصيته القديمة؛ فتلك الآلية لا تلائمه أبدًا:

"متى ستعود؟"

باءت محاولتي بالفشل؛ فقد أجاب بذات النبرة:

"قد أعود غدًا."

ثم غادر من فوره. سعدت بكونه جاء للاطمئنان عليَّ رغم كل شيء إلا أن ما قاله عن كونه مشغولاً بعمل آلمني كثيرًا. لقد كنت أحتاجه كثيرًا! أيقنت بأن شيئًا ما يخص علاقتنا قد انكسر وأني لن أستطيع ترميمه مهما فعلت. كان دائمًا ما يتفادى قول أن لديه عملاً يقوم به كي لا يحرجني، ولكنه الآن لم يعد يهتم. ترى هل ألزمه نداء الواجب بالمجيء للاطمئنان عليَّ أم أنه لا زال يحبني؟ ترى هل كرهني هشام؟

حين اطمأن الأطباء على صحتي، اتصلوا بهشام ليعلموه بأنهم سمحوا لي بمغادرة المشفى. جاء هشام فور انتهائه من عمله ليقلني بسيارته إلى المنزل. أخذ أغراضي ووضعها في السيارة بينما أركب. لم يبادر بالحديث طيلة الطريق إلى المنزل فقررت أن أفعل. حرك صمته فضولي لمعرفة ما إن كان لا يزال غاضبًا مني فسألته:

"أنت لا تزال غاضبًا منِّي، أليس كذلك؟"

أجاب باقتضاب:

"لا"

ثم سكت. أردت استدراجه لمتابعة الحديث فقلت:

"لقد فكرت في البحث عن وظيفة أخرى؛ فلا شكَّ أني سأجد ما يناسبني عما قريب.. ما رأيك؟" أجاب بجفاء مصطنع:

"لا شأن لي.. أنت من تقرر كيف تكون حياتك. يمكنك تبين ذلك إن أردت"

فاجأني جفاؤه وفاجأتني كذلك عدم رغبته في الحديث وقلت محاولاً أن أعيده إلى سابق عهده: "أتعتقد أنه من الممكن أن أؤذي نفسي ثانية؟"

أجاب ببرودٍ:

"لا شأنَ لي كذلك؛ فأنت من تُقرِّر ما تفعل."

يا إلهي! ماذا دهاه؟! قررت التزام الصمت؛ فأنا أؤثر صمته على ردوده المستفزة.

وصلنا إلى المنزل فترجلت من السيارة وتناولت أغراضي إلا أن هشام لم ينزل فسألته:

"ألن تأتي؟ يمكننا تناول طعام العشاء معًا."

قال:

"آسف، فلدي ما أفعله."

قلت مشجعًا إياه:

"لن يستغرق الأمر كثيراً من الوقت، سنتحدث ونتسامر كما كنا نفعل في الماضي.. أتذكر؟"

قال:

"أكرر أسفي.. ربما يتسنى لنا فعل ذلك في وقتٍ لاحقٍ. عن إذنك."

ابتعدتُ عن السيارة بعدما يئست من إقناعه بالبقاء. ترى لماذا لم يرد هشام البقاء معي رغم تعرضي منذ قليل لأزمة قلبية كادت تودي بحياتي؟ هل صار يؤثر عمله على صديقه المقرب؟ سألت نفسي إن كنا حقًّا سنلتقي مرة أخرى أم أنه قال ذلك حتى أدعه يذهب. ألم يعد يريد البقاء معي أبدًا؟ هل سَئِمَني هشام؟ شعرت بالأسى ودلفت إلى المنزل حزينًا؛ فلن أجد ما يؤنس وحدتي سوى برامج مملة في شاشة تلفاز قديم.

***

عدتُ بعد ذلك لتناول أدوية القلب في مواعيدها رغمًا عني؛ فقد كنت أخشى التعرض لنوبة قلبية جديدة. مضى أسبوع لم يأتِ فيه هشام لزيارتي ولو لمرة واحدة وقد أحزنني ذلك كثيرًا. إنه خطئي! أنا من أثرت غضبه وطلبت منه الرحيل. ولكن ما كان عليه أن يدعني وحدي؛ فمن يدري ما كان يمكن أن يحدث. إلا أني أنا من رغب في الخلاص من سيطرته وتسلطه. أنا من جنيت على نفسي! أجل هذه هي الحقيقة، لا يجب أن ألوم سوى نفسي. ليته أمسك بتلابيبي وهزني هزًّا عنيفًا علِّي أفيق من غفلتي قبل أن أطرده من منزلي. لن يقبل هشام اعتذاري حتى وإن أخبرني بأنه لم يعد غاضبًا مني. أنا لست فتى جيدًا يا أمي بل أنا ناكرٌ للجميل! أنا فتى سيء يستحق ما يجري له. ليتني أرحل عن هذا العالم؛ فمثلي لا يستحق الحياة. لقد انتهى كل شيء! سأموت لتدفن معي طموحاتي تحت التراب.

ازداد حزني وألمي وأيقنت أنني عديم النفع. غمرت بيتي فوضى عارمة فلم أعد أتبين مكان الأشياء. ردمت غرفتي بأسرها تحت أكوام من النفايات. تراكمت الصحون والثياب المتسخة في كل مكان وكذلك أكياس البطاطا المقلية وصفائح الطعام المعلب التي كنت أقتات على ما فيها طيلة الفترة الماضية. كنت ممددًا على السرير أشاهد التلفاز في لامبالاة بينما أتناول بعض البطاطا المقلية. رفعت صوت التلفاز كالعادة ليغطي على صخب دماغي؛ فقد كنت أفكر بوعيد الشيطان. لا بُدَّ أنه سيجعل من التنفيذ أمرًا مؤلمًا للغاية! أخذت أتخيل كيف سيعذبني ذلك الوغد الذي يملك بلا شك قدرًا كافيًا من السادية. عصفت بذهني صور تعذيب غاية في البشاعة انتفض على إثرها جسدي. استمررت في خيالاتي ولم أنتبه إلى انتهاء البطاطا ولا إلى كون الكيس قد غدا فارغًا. انتظرت كثيرًا دخول هشام ليطفئ التلفاز وليؤنس وحدتي إلا أن شيئًا من ذلك لم يحدث. بقيت وحيدًا أتطلع لمن يحضر لي كيسًا آخر من البطاطا. مللت الجلوس هكذا إلا أني لم أستطع الحراك

قيد أنملة. أحيانًا أعجز عن الذهاب للحمَّام بسبب افتقاري للطاقة اللازمة للنهوض فكنت أتبول في فراشي ولا أعبأ بتبديل الملاءة فغدت رائحة عفنة تفوح من الفراش تمامًا كتلك التي تصدر مني. مكثت أسبوعًا على هذه الحال، لا أتحرك سوى لأحضر شيئًا آكله حين يبلغ بي الجوع مبلغًا أو ربما لأذهب إلى الحمام. كنت أنهض متثاقلاً وحين كنت أنجح في ذلك فقد كنت أنجح بأعجوبة! لم تكن لدي أدنى فكرة عن إلام سيؤول هذا الوضع إلا أني كنت واثقًا من أن نهايته ستكون مؤلمة ومحزنة إلى حدٍّ كبيرٍ. جاء هشام لزيارتي يومًا ففتحت له الباب بعد وقتٍ طويلٍ من طرقه إياه. دخل هشام إلى الغرفة وقد صعقه المنظر وعجز عن إخفاء دهشته العارمة إزاءَ الفوضى. قال إنه قدمَ لزيارتي مرتين في الفترة الماضية إلا أني لم أفتح الباب فعللت ذلك بأني لم أنتبه لقرع الجرس إلا أن الحقيقة كانت أني لم أملك أدنى طاقة لأنهض من مكاني. ما أثار استغرابي هو أنه لم يعلق على الرائحة البشعة التي تفوح من مصادر متنوعة ابتداء ببقايا الطعام المتعفنة الملقاة على أرضية الغرفة وانتهاء بالملاءة التي تبوَّلَت عليها منذ بضعة أيام ولم أعبأ بتبديلها. لم أدرِ كيف تجاهُل رائحة الغرفة التي فاقت رائحة القبر سوءًا. لم يُبدِ هشام أي تذمُّر من صَوت التلفاز المرتفع على عكس عادته؛ فهو يكره الأصوات المرتفعة منذ كان صغيراً. قلت:

"لقد تغيرت كثيراً يا هشام"

ضحك في مرحٍ وقال:

"آمل أن أكون قد تغيَّرت للأفضل."

أومأت برأسي وقد ابتهجت كثيراً بكون هشام قد عاد إلى سابق عهده، واستعاد نبرة صوته التي كانت آلية إلى حدٍّ كبيرٍ منذ بضعة أيام. أعشق ضحكته الصافية التي لا تشوبها شائبة.. إنه رجل رائع! ثم قال وقد جذبني من يدي ليساعدني على النهوض:

"والآن انهض.. لننظف كل هذا.. سننظف المنزل بأسره اليوم! هيَّا، سأساعدك."

استطعت النهوض بمساعدته وشعرت بخفة غريبة تسري في جسدي الذي تيبس في مكانه لأسبوع كامل وكأنما انتقلت طاقة هشام الإيجابية إلى جسدي الميت فدبت فيه الحياة من جديد. كنت ممتنًا لكون هشام قد عاد ليكون الإنسان الذي عرفته منذ الصغر؛ فقد خشيت أن أكون قد فقدته للأبد.

عزمت في اللحظة التي عاد فيها هشام لزيارتي على بدء عهد جديد وعزمت على أن أجعل أيامي القادمة خيرًا من سابقاتها. استغرقنا تنظيف المنزل عشر ساعات كاملة. كنا منهكين تمامًا حين انتهينا من تنظيفه إلا أني كنت سعيدًا لاستعادتي صديق عمري. لقد كانت فوضى عارمة! وبعد أن غدا المنزل مرتبًا ونظيفًا، غلبنا النعاس ونمنا من فورنا من فرط التعب والإرهاق. استيقظ كلانا في اليوم التالي واستعد هشام للذهاب إلى عمله فسألته:

"ألن تبقى؟"

فأجاب:

"سأعود إليك عما قريب.. لا تقلق."

ترى عن أي قريبٍ يتحدث؟ لقد اشتقت لتلك الحيوية التي بثها في جسدي فشعرت وكأنما بعثت إلى الحياة من جديد بعد رقاد طويل تحت التراب، إلا أني كنت متأكدًا من أن تلك الحيوية ستندثر بمجرد رحيله. رتبت فوضى المنزل إلا أن دماغي لا يزال في فوضى عارمة ولا زلت أرسف في أغلال أفكاري ولم تنفك أشباح مخاوفي عن مطاردتي. أيقنت بعدما شعرت به اليوم من نشاط وحيوية أن روحي لم تفارق جسدي بعد وأنه ثمة شيئًا لا يزال ينبض بداخلي.. شيء لم تقتله أفكاري المزعجة وصورتي الذهنية المشوهة بعد. أنا لا أزال على قيد الحياة! شعرت بأني قادر على رؤية الأشياء حولي من منظور مختلف ولم أدر إن كان ذلك لأن الأثاث

لم تعد تحفه الفوضى أم لأني تحررت من بعض القيود التي كانت تكبلني. أما آن لي أن أملك زمام أفكاري وأكبح جماحها؟ أما آن للجراح الدامية أن تلتئم؟ ارتميت على الأريكة وضحكت؛ فقد كان الطبيب محقًا بشأن ما قال: لا شيء يبقى على حاله. وددت لو أجعل والديَّ فخورين بي وقد كان اليوم بمثابة الخطوة الأولى. عليَّ الاستمرار إن كنت أرغب في تحقيق هدفي فهو أقل ما يمكنني فعله عرفانًا بجميل صنعهم إلا أني لم أستطع مسامحة نفسي على الأذى الذي ألحقته بهما. ليتني أعرف إن كنت قد قتلت أمي حقًا! ليتني أتخلص من حيرتي المؤلمة! حيرتي تلك تدفعني إلى الجنون بسرعة لا يضاهيها شيء. والجنون هو آخر ما أرغب فيه!

***

مضت بضعة أيام شعرت فيها بأني على ما يرام على نحوٍ ما. لم يزرني هشام في تلك الأيام ورغم ذلك فقد سارت الأمور على نحوٍ جيدٍ. ثم بدأت أشعر بشيء سبق لي أن شعرت به. ثمة ثقب ما في صدري! إنه يزداد اتساعًا بمضي الوقت ويؤلمني كثيرًا! كنت أحاول أحيانًا ضم صدري بكلتي يدي حتى أسد الثقب فلا أستطيع قهر ذلك الشعور الذي يدفعني أحيانًا للصراخ من فرط الألم. عاد هشام لزيارتي أخيرًا وسألني:

"كيف حالك يا سليم؟"

أشرت إلى صدري وقلت بصوت يشجه الألم:

"الثقب.. إنه هنا!"

أبدى هشام تعجبه ولاحظت أنه كتم ضحكة كادت تتفجَّر رغمًا عنه ثم قال:

"عن أي ثقب تتحدث يا سليم؟! أنا لا أرى أي ثقب!"

قلت مشيرًا إلى صدري:

"هنا! بالكاد أستطيع التنفس.. لا أعلم بالتحديد متى ظهر ومن أوجده."

تحسس هشام جبهتي وقال في قلق واضح:

"سليم، هل أنت على ما يرام؟ حرارتك ليست مرتفعة.. أما زلت تتناول أدويتك؟"

قلت منزعجًا:

"أجل، وهل عساي ألا أفعل؟"

قال:

"لا أظن ذلك، ولكن لماذا تهذي إذًا؟"

فقلت:

"أنا لا أهذي يا هشام.. ثمة ثقب في صدري، وأنا متأكد من ذلك"

قال هشام:

"ولكن كيف؟"

فقلت جزعًا:

"وما أدراني؟ أصبح هناك ثقب وانتهى الأمر! ماذا عساي أفعل الآن؟"

قال محاولاً طمأنتي:

"حسنًا، لا عليك.. سنجد حلًا ما.. ما رأيك بأن نذهب إلى الطبيب لنتبين حقيقة ذلك الثقب؟" أومأت برأسي وقلت باكيًا:

"حسنًا".

وفي اليوم ذاته، ذهبنا إلى الطبيب الذي أجرى لي العملية وأخبرته بأمر الثقب وتوسلت إليه أن يفعل شيئًا ما. أخبرني الطبيب بأن الأمر نَفسيٌّ بحت وأنه لا

يستطيع فعل شيء حياله، وأنه يتوجَّبُ عليَّ مراجعة طبيبي النفسي. لم أقتنع بذلك وإنما لم أزَل أشعر وكأنما حفر أحد ما خندقًا في صدري، وأن ذلك الخندق يزداد اتساعًا بطريقة ما مع مضي الوقت. ثم أضرم ذلك الشخص النيران في الخندق فأخذت ألسنة اللهب تلتهم أعضائي الداخلية عضوًا تلو الآخر وغدت تنتشر بسرعة كما تنتشر النار في الهشيم. طلبت من هشام أن يأخذني إلى طبيب قلب آخر علَّه يستطيع مساعدتي فلم يدخر جهدًا قَطّ ولَبَّى لي طلبي. لم يجد الطبيب الثاني أي مشكلة جسدية حين فحصني وأخبرني بأن حالة قلبي غدت مستقرة بعد أن كللت العملية بالنجاح. لم أقتنع كذلك ورجوت هشام أن يأخذني إلى طبيب قلب ثالث فرفض متعللاً بأننا نضيع وقتنا على هذا النحو. شعرت بأني احترقت تمامًا وأنه لم يعد بوسع هشام احتمال كل هذا؛ فهو لا يستطيع أن يردم الخندق ولا أن يطفئ ألسنة النيران المتقدة داخله. كنت أعلم يقينًا أن هشام مشغول وأنه لم يعد بوسعه الاهتمام بي أكثر من ذلك. لقد فعل ما بوسعه لمساعدتي لتجاوز محن لم أتخيل أن أمر بها يومًا. فمَنْ كان يصدق أني سأتعرض لأزمة قلبية ولم أبلغ التاسعة عشر من عمري بعد؟ الثقب يؤلمني حد الصراخ! شعرت برغبة في البكاء إلا أن دموعي أبت أن تهطل. كانت العبرات تخنقني وشعرت بملوحتها في حلقي. إن الثقب في صدري يجعل من عملية التنفس أمرًا صعبًا للغاية! ولكن لماذا يجب عليَّ أن أستمر في التنفس رغم أنفي؟ ليتني ألفظ آخر أنفاسي فأرتاح من تلك الحياة برمتها. لم أشأ أن أحاول الانتحار مجددًا؛ كي لا تتفاقم الأمور. عدت إلى المنزل بعد زيارة الطبيب الثان واستلقيت على الأريكة ويبدو أنني غفوت قليلاً بعدما مللت من فعل اللاشيء. استيقظت ولم أتذكر بما حلمت وذهبت إلى المطبخ لأتناول شيئًا ما؛ فقد كنت أشعر بالجوع. كانت أفكاري لا تزال تعذبني. إنها لا تنفك عني لدقيقة واحدة. مَن كان يصدق أني سأفقد كِلا والدي في فترة وجيزة كتلك؟ لا أريد تصديق ذلك! أريد أن أعتقد أنهم ما زالوا إلى جواري. أريد أن يزورني والدي كما كانت

تزورني أمي كما أريد أن تعود أمي لزيارتي. أريدها ألا تكون غاضبة مني. أريد أن يعود كل شيء إلى نصابه. وددت لو أكون ذلك الفتى المجتهد البار بوالديه؛ فقد ندمت على أفعالي الهوجاء. أشعر بالذنب والندم الشديدين، ولكن ماذا يجدي الندم بعد ضياع كل شيء؟ لقد أضحت حياتي بلا معنى وقد كرهتها كثيرًا إلا أني مرغم على احتمالها فلم يعد أمامي خيار آخر.. عليَّ الاستمرار في محاولة التكيف آملاً ألا تذهب محاولاتي سدى.

***

الحقيقة المرة هي أننا ندعي أن كل شيء بحوزتنا هو أمر مسلم به، وأننا نستحقه عن جدارة إلى أن نفقده. نحن لا نعرف القيمة الحقيقية للأشياء إلا بعد أن تغادرنا. فنتمنى حينها استعادة ما فقدناه إلا أن ذلك يغدو محض حلم مستحيل. قد نذرف دموع الندم من آنٍ لآخر فلا نستطيع تغيير أي شيء مما حدث. لقد كنت أعد عملية التنفس شيئًا مسلمًا به أفعله دون جهدٍ يُذكَر أما اليوم فقد غدوت أتنفس بصعوبة بالغة. هشام.. لطالما اعتبرت وجوده إلى جواري أمرًا عاديًا؛ فإلى أين سيذهب مثلاً؟ سيعود بلا شكٍّ. لا بأس إذا في أن أغضبه قليلاً أو كثيرًا فسرعان ما سيتسنى لي إرضاؤه بالتأكيد. شعرت بذات الشعور تجاه والدي الاثنين. لا ريب أن وجودهما في حياتي لن ينتهي أبدًا مهما بدرَ مني. يمكنني إغضابهما كما أشاء فلن يصعب استرضاؤهما فيما بَعد. اعتقدت ذلك إلى أن غادرا حياتي دون أن أعتذر عن الكثير من المتاعب التي سببتها لهم. والأدهى من ذلك هو أنني قتلتهما بدمٍ باردٍ! أنا وحش عديم الرحمة! ماذا يجدي شعور الذنب الآن؟ هل يعيد ما فات؟ قد أحاول إصلاح علاقتي بهشام وقد لا أفلح في ترميم ما انكسر إلا أن الأمر يستحق المحاولة. لم أكن أتخيل في أسوأ كوابيسي أن يموت والدي أمام ناظري وأن أكون عاجزًا تمامًا عن مساعدته وعن التوسل إلى ملك الموت بأن يتمهل

قليلاً قبل أن يقبض روحه. كنت طفلاً بريئًا يلعب بالطائرات الورقية والألعاب الإلكترونية ويحلم بأن يصبح فيزيائيًّا يومًا ما ثم غدوت مراهقًا يحلم بالحب وبالمال الوفير لينفقه على نزواته الكثيرة ثم أصبحت بعد ذلك شابًا جامعيًّا يقضي وقته بين أصدقائه ولا يهتم بأن يستقطع جزءًا ضئيلاً من وقته ليقضيه بين أبويه. لقد تجردت من شتى معاني الإنسانية. أصبحت الغابة المكان الوحيد الذي يمكن أن يؤويني. عادت الفوضى إلى المنزل بسرعة مذهلة وغدا المنزل أقذر مما كان. أصبح مرتعًا للفئران والحشرات بشتى أنواعها. بل إن الفئران والحشرات تأنف من أن تسكن مكانًا قذرًا كهذا. كانت القاذورات تملأ المكان وكأنما استحال بيتي حاوية نفايات. طرق هشام الباب ففتحته له ثم دلف إلى الداخل. ارتسمت على وجهه أماراتُ الدهشة وقال:

"يا إلهي! ما هذا؟!"

قلت معتذرًا في نبرة شِبه باكية:

"حاولت الحفاظ على جهودنا مكلَّلة بالنجاح إلا أنني عجزت تمامًا عن فعل ذلك."

وددت حينها لو أرتمي بين أحضان صديقي باكيًا إلا أنني لم أفعل. قال هشام:

"لا عليك، سنعيد ترتيب كل شيء."

هززت رأسي رافضًا اقتراحه وقلت:

"لا.. لا تتعب نفسك؛ فأنا أفسد كل شيء."

احتضنني هشام بقوة وقال:

"لا يا سليم، أنت لا تفسد أي شيء.. والآن لنعيد التنظيف ولكن عليك أن تساعدني يا بطل." قلت:

"لا.. لا أريد.. لا تفعل."

فقال مستغربًا:

"ولمَ لا؟ أيسرك العيش بين أكوام القمامة تلك؟"

حركت كتفي في لا مبالاة فسألني:

"لماذا يا سليم؟ ألم ترق لك الحياة حين نظفنا المنزل في المرة السابقة؟"

قلت:

"بلى، ولكن انظر إليه الآن! لقد استحال مقلبًا للنفايات! وسيستحيل كذلك في كل مرة تعيد فيها تنظيفه. فما الفائدة؟ سيكون ما تفعله بلا جدوى."

قال هشام:

"لم أعهدك مستسلمًا يا سليم."

فقلت:

"لست كذلك وإنما لا أريد أن تذهب جهودك سدى."

قال:

"إذًا فعلينا المحاولة."

أومأت برأسي أخيرًا وتنهدت غير مقتنعٍ بكلامه.

شرعنا في تنظيف المنزل ولم ننتهِ سوى في ساعة متأخرة من الليل. أخذنا نتسامر كما كنا نفعل في الماضي ما أسعدني كثيرًا. وفي اليوم التالي، عرض عليَّ هشام الذهاب للتنزه إذ كان يوم عطلته. وافقت على مضض نظرًا لإصراره، إلا أنني محظوظ لكوني وافقت؛ إذ كانت النزهة رائعة وممتعة للغاية وأنا محظوظ كذلك لكوني أحظى بصديقٍ مثل هشام. حين أقلني هشام للمنزل، كنت منتشيًا وقال لي:

"احرص على تنفيذ ما اتفقنا عليه"

فسألته:

"وما هو؟"

قال متعجبًا:

"يا إلهي! أنسيت بهذه السرعة؟!"

قلت مستدركًا:

"أجل، لقد تذكرت.. سأحاول دائمًا حتى وإن لم أجد مبرِّرًا كافيًا للمحاولة"

قال هشام:

"بالضبط.. تصبح على خير يا سليم"

فقلت:

"تصبح على خير."

ذهب هشام في طريقه ودلفت إلى منزلي. لم أكن أعلم شيئًا عما كنت سأفعل إن لم يكن موجودًا في حياتي. قضيت بضعة أيام بعد ذلك برفقة هشام. كان يعود من عمله كل يوم ليصطحبني في نزهة وقد كنت ممتنًا لذلك كثيرًا. تمنيت لو تطول هذه الأيام أو بالأحرى لو تستمر للأبد. شعرت وكأنما ولدت من جديد.

***

بدا كل شيء ورديًّا في تلك الأيام. كنت أشاهد الحياة بمنظور جديد وفعلت ما بوسعي للحفاظ على نظافة البيت عملاً بنصيحة هشام بأن أحاول باستمرار. كنت أستيقظ مبكرًا لأستحم وأرتب غرفتي ثم أُعدّ فطوري وأتناوله ثم أقرأ بعض الشيء في أحد الكتب التي غمرها الغبار من جراء الإهمال وقد أخرج بعد ذلك لممارسة الرياضة. قلما كنت أشعل التلفاز؛ فقد كان وقتي مشغولاً وزاخرًا بالأنشطة المتعددة. وحين كنت أشعله فقد كنت أجعل مستوى الصوت منخفضًا

نسبيًّا؛ فلم تعد أفكاري مزعجة إلى درجة لا تطاق. تكيفت مع وجودها بطريقة ما. تساءلت كم سيدوم هذا الوضع إلا أن ذلك السؤال لم يكن يقلقني كثيرًا؛ فكل ما أردته هو أن أعيش هذه اللحظة الحالية وأن أحرص على أن تمر بسلام؛ فلا داعي لزيادة الطين بلة ولا داعي لأن تقيدني أفكاري. شعرت بالحرية كما لم أشعر بها منذ زمنٍ بعيدٍ. كنت سعيدًا بما وصلت إليه، وكنت حريصًا في الوقت ذاته على تناوُل أدويتي بانتظام؛ فهي تُعَد أحد الأسباب التي أوصلتني إلى التحسن الذي أحياه الآن. لم تعد أغلال عقلي تقيد حياتي، وخفت وطأتها كثيرًا. استحال الألم أملاً ولم يعد الحزن بمثابة رفيق دائم لي. لم يزل يزورني من وقتٍ لآخر إلا أن سعادة تلك اللحظات طغت على وجوده. ما عدت أدور في فلك الاكتئاب بل صرت أكثر تحررًا. لم أرد للوضع أن يتغير للأسوأ رغم يقيني بأن تلك هي حال الدنيا: لا شيء يبقى على حاله. لم أجد مقولة أكثر صدقًا من تلك. لا يمكننا أن نعد دوام الحال من المسلمات؛ فهذا مستحيل. يبدو أن ولادتي الجديدة باتت وشيكة. أنا متفائل حد الجنون. جلست أفكر ذات يوم فيما عليَّ فعله في حياتي ففكرت في السفر لإتمام دراستي الجامعية في مكان ما خارج البلاد كما فعل هشام؛ علّي أجد الحياة التي ترضيني هناك. إلا أني خشيت ألا أستطيع التكيف مع متطلبات وظروف الحياة المختلفة هناك. سأضطر إلى أن أحيا في بيئة مغايرة لتلك التي أحيا فيها وإلى التعامل مع أناس ذوي طباع مختلفة تمام الاختلاف عن طباعي. لم أقلق بشأن هشام؛ فهو يستطيع تدبُّر أمره في غيابي وإنما قَلقتُ بشأن نفسي؛ فأنا لا أدري ما إن كنت سأستطيع التصرف بدونه. سيكون عليَّ أيضًا أن أجد عملاً ما؛ فلن يكون هناك من يعولني أثناء سفري. ربما أستطيع الإنفاق من ميراث والدي أو قد أقترض المال من هشام ولكن ماذا سيحدث إن أصابتني نوبة اكتئاب ثانية؟ وماذا سيحدث إن حاولت الانتحار هناك؟ ماذا سيجري إن أصابتني نوبة قلبية ولم أجد أيًّا ممن أعرفهم إلى جواري؟ سأكون وحيدًا تمامًا. ترى هل سأجد أصدقاء هناك؟

هل سأجد من يملكون خصالاً مشابهة لخصال هشام؟ هل سأعثر على من يتحمل غضبي وتصرفاتي الطائشة؟ لا أظن ذلك.. من سينجدني إن وقعت في ورطة؟ من سيغيثني ويقف إلى جواري إن أصابتني ضائقة مالية؟ ترى هل سيتبعني الشيطان إلى هناك؟ قد أسافر فرارًا من بين براثنه ثم يتتبع هو خطواتي ويلحق بي لينفذ وعيده. عصفت بذهني الظنون ثم جاء هشام وقررت أن أخبره بما فكرت فيه. راقت له الفكرة وأخبرني بأنه عازم على مساعدتي وبأن لا أقلق بشأن النقود؛ فهو سيقرضني. أخبرني كذلك بأنه عليَّ أن أستعد الآن للعام الدراسي الجديد ريثما نخطط للسفر؛ فقد كان عامي الثاني في تلك الجامعة على وشْكِ أن يبدأ. وافقت على اقتراحه وشرعت أعد عدتي للعام الجديد. ذهبت لشراء مزيد من الثياب برفقة هشام، واشتريت كذلك بعض الأدوات الدراسية التي سأحتاجها في الجامعة. ولحسن الحظ، بدأ العام الدراسي الجديد حين كان كل شيء جاهزًا. عزمت على أن أحصل على تقدير ممتاز هذا العام، وقد سعد هشام بعزيمتي. بدأت أستذكر دروسي منذ اليوم الأول. وبعد أسبوع من ارتياد الجامعة، تعرفت على صديقين جديدين وحظيت بنحو عشرة زملاء. كنا نرتاد المعمل نفسه وأحيانًا نعين بعضنا البعض على استذكار دروسنا أو نتناول الطعام معًا في مطعم الجامعة. لم أعبأ بنظرات الناس لي وعلَّلتْ ذلك بأنهم لا يقصدون توجيهها. ربما كانت تلك الأفكار محض ضلالات في نهاية المطاف. قد أكون فقدت قبضتي على الواقع لبعض الوقت، وها أنا ذا أستعيدها من جديد!

***

وذات يوم، عدت إلى منزلي بعدَ يومٍ دراسيٍّ طويل ومرهِقٍ. دلفت إلى غرفة مكتبي كعادتي منذ بدأت الدراسة وأخرجت الكتب التي اقتنيتها سابقًا ووضعتها على المكتب لأبدأ في استذكار دروسي. كان ثمة مفاجأة بانتظاري؛ فقد حدث ما لم

أتوقع حدوثه على الإطلاق. رأيت أمي وأبي يقفان إزائي مبتسمين. كدت أطير من فرط السعادة، إلا أن شيئًا ما كان يكدر تلك السعادة ألا وهو وجود الشيطان في ذات الغرفة. هرعت إلى أبوي متجاهلاً وجود الشيطان فقال أبي:

"كيف حالك يا سليم؟"

أجبت:

"أنا بخير يا أبي.. كيف حالكما؟"

قالت أمي مبتسمة:

"نحن بخير يا بني.. كيف حال دراستك؟"

قلت:

"إنها تسير على ما يرام."

قال الشيطان بصوته الأجش معلنًا تذمره:

"ألن ينتهي هذا الحوار الممل؟ لقد سئمته كثيرًا!"

سألته وقد خشيت أن تكون المهلة التي منحني إياها قد انتهت:

"لماذا جئت إلى هنا الآن؟"

قال:

"أنا أفعل ما يحلو لي."

قلت متحديًا:

"لا شأن لك بحوارنا فهو يروقني."

قال الشيطان:

"هيًا، عليك أن تخبرهما بأنك قتلتهما."

قلت:

"وكيف أخبرهما بذلك؟ سيكرهانني كثيرًا!"

قال:

"هذا لا يعنيني أبدًا! أخبرهما وإلا فلن أدعك تراهما ثانية."

قلت في وجلٍ:

"ماذا ستفعل؟"

فقال:

"هذا ليس من شأنك" وجهت كلامي لوالدي قائلاً:

"أخبراني، هل قتلتكما؟"

نظر والدي إلى بعضهما البعض في استغراب ثم قال أبي:

"ماذا تعني يا بني؟"

قلت بنبرة تسلل إليها الغضب:

"أعني ما سمعت! هل قتلتكما؟"

رددت أمي ما قالته سابقًا:

"أنت فتى جيد يا سليم، ولا يجدر بك أن تقتل!"

صرخت بها:

"كفي عن هذا الهراء وأخبريني الحقيقة! هل قتلتك؟"

قال أبي:

"اهدأ يا سليم؛ فنحن لا نفهم ما تعنيه.. لا تَقسُ على أمك؛ فهي لم تقصد إزعاجك."

قلت:

"أرجوكما أخبراني حقيقة ما حدث؛ فقد سئمتُ صخبَ عقلي وشعور الذنب وتلك الحيرة القاتلة التي أحياها!"

قال الشيطان في نفادِ صبرٍ:

"أنت لم تخبرهما بالحقيقة بعد بل تنتظر سماعها منهما لأنك لست سوى جبان! أخبرهما الآن وإلا فأنت تعرف عاقبة عصيان أوامري."

ترددت كثيراً ثم قالت أمي:

"سليم، أنا لم أعهدك سوى مطيعًا وطيبًا ولا تستطيع إيذاء قطة، فما بالك بقتل إنسان؟!"

قلت وقد نفد صبري:

"كفي عن تعديد مزاياي وأخبريني.. هل قتلتك؟!"

قال أبي محاولاً أن يذود عن أمي المسكينة:

"دع أمك وشأنها يا سليم! سبق وأخبرتك بما تريد!"

قلت في رجاء ممتزج ببكاء:

"هل قتلتك يا أبي؟ أخبرني أرجوك!"

قال والدي:

"سليم، أنا لا أعلم عما تتحدث"

قال الشيطان في حزم:

"انتهى الوقت.. لقد فات الأوان!"

أخذ والديّ يبتعدان عني شيئًا فشيئًا إلى أن اختفيا بين الضباب. أخذت أنادي عليهما أثناء ركضي نحوهما:

"أمي.. أبي.. انتظرا قليلاً!"

ثم سمعت صوت أبي قادمًا من بعيد:

"الوداع يا بني.. اهتم بنفسك يا عزيزي."

ذهبت جهودي سدى؛ فلم أستطع اللحاق بهما. قال الشيطان:

"أنت من جلبت هذا لنفسك أيها القاتل!"

ثم رحل مقهقهًا. حزنت كثيرًا، لم أفكر حتى في طلب العفو منهما ولا أدري كيف غفلت عن ذلك. كل ما شغلني هو معرفة الحقيقة لأبرئ نفسي ولأتفادى غضب الشيطان. كم أنا ساذج وأناني! الموت هو الحقيقة الوحيدة في تلك الحياة إلا أننا نختار أن نغفل عنها ما حيينا بكامل إرادتنا ولا نفيق إلا حين تباغتنا فجأة. هويت على أرضية غرفة المكتب جاثيًا على ركبتي.. كنت أبكي بغزارة وكانت دموعي ترتطم بأرضية الغرفة. كانت الكتب لا تزال موجودة على سطح المكتب إلا أني عدلت عن فكرة استذكار ما فيها لليوم. كان الحزن يغمرني؛ فقد أيقنت بأن والدي قد رحلا للأبد. لماذا؟ لماذا يحدث هذا لي دونًا عن بقية الخلق؟ لقد سَئمتُ حالي تلك ولم أعد أطيقها! إنها مزعجة للغاية! لا شيء يمكنه قتل ذلك الشيطان بما في ذلك الأدوية. ولن أستطيع الفرار من بين براثنه مهما فعلت. إن كنت أرغب صدقًا في الخلاص منه فيجدر بي قتل نفسي كي نهلك معًا وهو ما لا أستطيع فعله. شعرت بأحزاني تحكم قبضتها عليَّ. لم يعد هناك مجال للفرار.

***

جاء هشام في ذات اليوم ليجدني لا أزال على حالي رابضًا على أرضية الغرفة. كنت قد أعطيته نسخة من مفتاح المنزل حتى يتسنى له الدخول إن لم أتمكن من فتح الباب له. هُرِع إليَّ فزعًا وقال:

"ما بك يا سليم؟ ما الذي حدث؟"

لم أجب وإنما كنت مستغرقًا في البكاء فأعاد سؤاله:

"سليم، أخبرني.. ماذا حدث؟"

أخذ يهزني بعنفٍ عله يجد إجابة لسؤاله. ربما اعتقد بأن هزي سيجعلني أتقيأ الإجابة بصورة ما، إلا أني استمررت في النحيب وفي قول كلام غير مفهوم بالمرة. توقف هشام عن هزي وقال: "سليم، أنا لا أفهم شيئًا مما تقول ولم ألتقط منه حرفًا واحدًا! تحدث ببطء قليلاً وأخبرني عما حدث"

اشتد نحيبي فاحتضنني قائلاً:

"لا عليك يا صديقي.. سيكون كل شيء على ما يرام."

ثم وضع رأسي بين كفيه وقال:

"أيًّا كان ما حدث فسنجتازه سويًّا، أتسمع؟ سنجتازه!"

دفعته بعيدًا عني وقلت في غضبٍ:

"لا أريد تجاوزه! لا أريد! أنت أيضًا سترحل حتى وإن أخبرتني مائة مرة بأنك ستبقى إلى جواري! أنت تخدعني! أنا من أصارع الأفكار وحدي! أنت لا تعرف شيئًا عما أعانيه!"

قال هشام:

"قد لا أفهم ما تعانيه تمام الفهم، ولكن ثق بأني أحاول مساعدتك بكل ما أوتيت من قوة؛ فأنا أهتم لأمرك يا سليم."

صرخت:

"لا تفعل! لا أريد منك اهتمامًا! سترحل يومًا؛ فالموت هو الحقيقة الوحيدة في تلك الدنيا، هذا المستنقع العفن! لقد سَئمتُه وسَئمتُ شفقتك.. إنها مقززة!"

صرخ بي:

"ماذا تقول أيها الغبي؟! أنا لا أشفق عليك!"

قلت بذات الغضب الذي تفجر كالبركان الذي ثار لتوه:

"من تظن نفسك لتصرخ بي هكذا ولتنعتني بالغبي؟! من تظن نفسك؟!"

ويبدو أن كلماتي المفجعة أفقدته نُطقَه ثم قال بمجرد أن استعاده:

"لا أحدَ يا سليم.. لا أحد.. آسف لكوني ظننتني صديقًا لك."

قلت بمنتهى الوقاحة:

"من الجيد أنك أدركت أنك لم تعد كذلك."

رحل هشام؛ فقد فاض به الكيل بحسب ما اعتقدت. كنت أتمنى ألا يرحل. يا لحماقتي! لقد فقدت صديقي المخلص للأبد. أخذت ألوم نفسي؛ إذ لم أتشبث به وأمنعه من الرحيل. ربما كان عليَّ أن أركض وراءه؛ فربما لن أجد فرصة للاعتذار منه ما حييت.

أخذت أجوب الشقة كالمجنون باحثًا عن شيءٍ ما. قطعتها ذهابًا وإيابًا فلم أجده. إنه علبة الدواء الخاصة بي. لا بُدَّ أن هشام أخفاها في مكانٍ ما. لم أجدها أبدًا وإنما وجدت المسدس الخاص بوالدي الذي كان يعمل شرطيًّا. ربما نسي هشام أن يأخذه. أمسكت به وانطلقت نحو غرفتي كالقطار الذي لا يعيق تقدمه شيء. دلفت إلى الغرفة وجلست على السرير. نظرت إلى المسدس ووددت لو أفجر رأسي برصاصة منه حتى أخرس الأفكار التي تجتاح رأسي! حتى أسكت صخب دماغي للأبد! حتى لا أشعر بمزيدٍ من الألم؛ فقد نلت ما يكفيني! حتى لا أرى المزيد مما يزعمون أنه خيالاتٌ.. إلا أن خاطرًا ما دار بخلدي: إن قتلت نفسي الآن فسيغدو الشيطان شامتًا في نهايتي المأساوية ولن يضنيه أن يحتل جسدًا آخر! لم أرد أن ينتصر ذلك الطفيلي على إرادتي.. لم أرد أن أزيد من عدد ضحاياه.. لم أرد له أن يبدو قويًّا كما لم أرد لأفكاري المظلمة أن تنتصر. ألقيت بالمسدس بعيدًا وشرعت

أبكي.. ما عساي أفعل الآن؟ هل سيقتلني دماغي حقًّا؟ نظرت حولي فوجدت الهاتف الذي أهداني إياه هشام على السرير. لم يسعني أن أفكر بشيء سوى بالاتصال بصديقي. تمنيت بصدق أن يجيب رغم كل ما حدث. ولكم كانت سعادتي غامرة حين أجاب هشام اتصالي. قلت بين دموعي:

"هشام؟"

فقال:

"نعم يا سليم"

انفجرت باكيا وقلت:

"هشام، أنا آسف.. آسف على ما بدر مني وأرجو أن تقبل اعتذاري. آسف لأني آلمتك كثيرا.. آسف لتكراري الخطأ نفسه مئات المرات.. أعدك بأنني سأحاول من جديد.. أعدك بألا أستسلم أبدا.. "

وحينها تقطع صوتي وازداد بكائي باطراد ثم سمعت هشام يقول بنبرة قلقة:

"سليم.. اهدأ قليلا.. أنا أصدقك"

سألته في تعجب

"تصدقني؟!"

أجاب هشام:

"أجل يا سليم.. أنت لم تنقطع عن المحاولة قط ولم تستسلم لمرضك أبدًا.. قد تخسر جولة وتفوز بالأخرى إلا أنك لا تنهزم.. لم يهزمك مرضك بعد يا سليم!"

هدأت بعض الشيء حين اطمأننت إلى أن هشام لم يهجرني بعد وقلت:

"أنت أروع صديق يمكنني أن أحظى به يا هشام.. أنا ممتن لوجودك في حياتي"

توقعت أن يعاتبني على قولي أنه لم يعد صديقًا لي إلا أنه لم يفعل بل قال في مرحٍ:

"لا تبالغ يا سليم.. أنا لست أروع صديق."

ابتسمت، فهشام إنسان رائع بالفعل وأنا سعيد لكوني أخبرته بامتناني لوجوده في حياتي.

***

مضت الأيام.. وقد كان هشام يزورني خلالها بانتظام وكان يعينني على استذكار دروسي. كان ذهني كثيرًا ما يشرد إلا أن هشام كان صبورًا معي إلى أبعد الحدود. كنت حريصًا على تناوُل أدويتي وزيارة الطبيب بانتظام فغاب الشيطان عن زيارتي لبعض الوقت. لم تنقطع عني الخيالات السوداء وأحيانًا كنت أسأل هشام عن وجودها فيخبرني بأنه لم يرَ شيئًا. وذات يوم، دلف هشام إلى غرفتي ويبدو أنه لاحظ تجهمي إذ سألني:

"ما بك يا سليم؟"

فقلت:

"والديّ..."

سألني هشام:

"ما شأنهما؟"

قلت:

"هل قتلتهما حقًّا؟"

قال:

"ولماذا تقول ذلك يا سليم؟"

قلت:

"إنه ذلك الشيطان.. لقد أخبرني بأني قتلت..."

قال هشام:

"أي شيطانٍ يا سليم؟!"

ترددت كثيرًا فأنا لا أدري إن كان عليَّ أن أخبره بأمر الشيطان ثم قلت:

"دعك منه.. أنا فقط..."

قال هشام:

"سليم، لا تدع ظنونك ترديك يا صديقي.. ولا تدع ما تسميه شيطانًا يهزمك. إنه أضعف من أن يفعل ذلك"

قلت في حزنٍ:

"ولكني قتلت أبوي!"

قال:

"لا أعتقد ذلك يا سليم"

قلت:

"ولكن كيف؟! هل ما زالا على قيد الحياة إذًا؟"

هز هشام رأسه نافيًا وقال:

"اسمعني، أعلم أنك تتمنى لو لم يفارقا الحياة.. ولكن الحقيقة أنه لا يمكننا تغيير ما قد وقعَ ولا يمكننا إعادة ما مضى.. رفضك لحقيقة ما حدث لن يغير من الوضع شيئًا."

صرخت باكيًا:

"كفى يا هشام! أنت لا تشعر بما أشعر.. إنه شعور الفقد!"

استغرقت في بكاءٍ مريرٍ لبعض الوقت ثم قلت:

"أنا أشتاق إليهما!"

ربت هشام على كتفي ثم قال:

"أعلم ذلك يا عزيزي.. إلا أن حياتك لم تنتهِ بانتهائهم، فاحرص على أن تكون حياتك مدعاةً لفخرهم."

مسَّت كلماته شيئًا ما بداخلي، وددت لو أجعل من حياتي سببًا لفخرهم وكذلك وددت لو أفتخر أنا بحياتي. أردت أن أجعل منها حياة ذات قيمة. قال هشام:

"اجعل من حياتك حياةً تستحق أن تحياها.. حينها ستجد بصيص الأمل في نهاية النفق المظلم" أومأت برأسي مبتسمًا ما جعلني أعتقد بأن ذلك الأمل لا يزال حيًّا داخل ظلمات نفسي.

بدأت الامتحانات في الجامعة، ومع بدايتها بدأت استعداداتي لها. لم يتسنَّ لي تحصيل القدر نفسه من المعلومات الذي كنت أحصله في الماضي إلا أني بذلت ما في وسعي. كنت فخورا بما أفعل؛ فرغم الأفكار والخيالات المزعجة ورغم الخمول الذي تصيبني به بعض الأدوية، فقد استطعت استذكار عدد معقول من دروسي واستطعت كذلك ولوج لجنة الامتحان والإجابة عن عددٍ لا بأس به من الأسئلة الموجودة بالورقة. تحسن مزاجي كثيرا ووددت لو أبقى خارج المستنقع البائس للأبد. أردت أن أجعل من حياتي قصة ملهمة لغيري. قد أواجه صعوبات كثيرة ومتنوعة، وقد أعجز عن تخطي بعضها وأنجح في تخطي البعض الآخر إلا أني لن أرضخ لأفكاري السوداء. وذات يوم، كنت في الجامعة وقد أنهيت لتوي امتحان فيزياء. وحين غادرت لجنة الامتحان، رأيت الشيطان ينظر إليَّ من بعيدٍ بنظرات يملأها الغضب. ارتعت بداية لرؤيته؛ فقد ظننته غاضبًا إزاء عصياني لأوامره واعتقدت أنه قد جاء لتنفيذ وعيده إلا أنه لم يتحرك من مكانه. لم أدرِ ما علي فعله إن حاورني أمام زملائي من الطلاب، فإن أجبته فسيعتقدون بكوني مجنونًا ولكنه لم يقل حرفًا واحدًا. ابتسمت؛ فهو ما عاد يجرؤ على الاقتراب مني ولا على محادثتي. قد لا ينفى من حياتي تمامًا إلا أنه لم يعد مسيطرًا عليها. أنا من غدوت أملك زمام الأمور. أنا من أرسم حياتي على النحو الذي أحب. شعرت وكأنما أبصرت النور لتوي بعدما كنت مصابًا بالعمى لفترة لا بأس بها. يبدو أنه ثمة بصيص أمل في نهاية النفق المظلم!

تمت